مصطفى صادق الرافعى الشاعر الناقد(*)

مصطفى صادق الرافعى الشاعر الناقد(*)

توطئه :

لا شك أن مصطفى صادق الرافعى عملاق من عمالقة الأدب واللغة والنقد النابهين فى العصر الحديث ، فهو إمام مدرسة أدبية ونقدية لها مميزاتها الخاصة ، من أبرزها المحافظة على الميراث القديم ، وهو شخصية غنية لا تقل من حيث القيمة أو المكانة الفنية شعرا ونثرا ونقدا عمن عاصره من الأدباء والنقاد الأفذاذ ولذلك فهو خليق بأن يحتفى بأدبه ونقده ، وبإن تتناوله الأقلام بالبحث والدرس ، لما فيه من عطاء لم يخرج كله بعد إلى النور ، ومن طبيعة الأبحاث المقدمة إلى مثل هذه المهرجانات الأدبية ، أن تتسم بالإيجاز والتركيز ، ومن ثم فقد ركزت بحثى هذا حول فكرتين ، هما الرافعى الأديب الشاعر ، حيث تتحدث عنه مكانته الأدبية وقيمة شعره الفنية ، وموضوعات شعره وأسلوبه وطريقته فى التعبير ، ثم أردفت ذلك بملاحظات حول شعرة ، ثم الرافعى الناقد ، حيث تحدثت عن طريقته فى النقد ، وتصوره النقدى لماهية الأدب والشعر وتصوره للغة الشعر وأسرار النظام اللغوى ، ومعركته مع القديم والجديد ونقده لطه حسين ، ونقده للعقاد وشعره ، ثم أردفت ذلك بملاحظات حول نقد الرافعى ، ولعلى لا لأكون مصادرا إن قلت إن أدب الرافعى وشعره كان تطبيقا عمليا لما كان يراه ويعتقده من أفكار نقدية ، ولعل هذا البحث يكون نواة لكتاب يصدر عن شعر الرافعى ونقده فى مستقبل الأيام ، ومن الله التوفيق .

(*)الدكتور / صلاح مصيلحى على عبد الله .

"الرافعى الأديب الشاعر "

(١)

ولد مصطفى صادق الرافعى لأسرة لبنانية هاجرت إلى مصر سنة ١٢٤٣هـ وكان مولده بقرية بهتيم إحدى قرى محافظة القليوبية سنة ١٨٨٠م ، وقد عرفت أسرته بنزعتها الدينية وتشبثها بعقيدتها الإسلامية ، واشتهرت بالتقوى والصلاح وصفاء العقيدة والغير على الدين الحنيف ، وقد تولى أكثرها قضاء الحنفية بمصر بأمر من السلطان العثمانى ، ومناصب القضاء لها حرمتها فى نفوس الناس لأنها مناصب دينية ، ومن ثم ظل الرافعى نفسه يعمل كاتبا فى المحاكم الشرعية فى طلخا وإيتاى البارود وطنطا ، إلى أن توفى فى مدينة طنطا عام ١٩٣٧م .

وقد أثرت عوامل كثيرة فى تكوين شخصيته الأدبية ، كعدم إكمال تعليمه ، وإصابته بحمى التيفود العنيفة فى السابعة عشر من عمره وكان من نتيجاتها صممه الخالص فى الثلاثين من عمره ، والجو الإسلامى الذى تنفس فيه فى بواكير حياته ، ثم نبوغه وعبقريته المبكرة التى تغلبت على الصمم ونقص التعليم ، فكان أديبا عصاميا عبقريا إسلاميا ملأ أسماع الدنيا لأكثر من خمس وثلاثين سنة بأهازيج الشعر الناعمة المتميزة بالسمو البيانى ، أو أديبا ممتازا بفكره العميق وعبارته الدقيقة ، أو بصيرا بجمال أساليب اللغة ومالكا لزمام المعانى والبيان ، أو واحدا من الكتاب القلائل الذين تخطوا ظواهر الحس إلى القوى الباطنة ، لقد امتلك الرافعى ناصية اللغة وتصرف فيها كيف يشاء ، كان يكتب بحذر ، ينتخب المعانى ويختار الألفاظ ، ويتفنن فى العبارة ، ويولد فى المعانى ، ويصور آراءه فى الحب والجمال ، كما

يصور إحساسه بما حوله من طبيعة وغير طبيعة وإيمانه بمثل الإسلام والعروبة ([1]).

وقد ترك الرافعى آثارا أدبية كبيرة تدل على مكانته وقيمته الفنية وتكشف عن ثقافته الواسعة بالتراث العربى القديم أدبا ولغة ، من أهمها : ديوان الشعريان ، الأول الذى سماه (ديوان الرافعى) والثانى الذى سماه (النظرات) ثم كتابه (تاريخ آداب العرب) الذى أزعج المستشرفين ففضلوا عليه أصحاب التبعية والولاء الغربى ، والذى اشتمل على بعض الفنون الأدبية التى لم يتطرق إليها الدارسون كثيرا ، كالقصائد المعراه وذوات القوافى والمتائيم والقوافى المشتركة ، وقد عرف الرافعى هذه الأنواع واستقصى بحثها ما أمكن ذلك ([2]) ، ثم كتابه (إعجاز القرآن) الذى كان قنبله خطيرة ألقاها على خصوم الإسلام والعربية ، الذين هاجموا القرآن وظنوا أنهم قادرون على هدم اللغة دون أن يتنبه إليهم أحد ، عن طريق دعوتهم إلى هجر أساليب الأولين وبلاغة العربية وفصاحتها واتباع أساليب العصر ، بغرض صد المسلمين عن هداية الإسلام وعن الإيمان بإعجاز القرآن الكريم ، الذى أحدث به الله أعظم انقلاب فى حياة البشر ، ثم كتابه (تحت راية القرآن) الذى رد فيه على نظرية الدكتور طه حسين فى انتحال الشعر الجاهلى ، ثم كتابه (على السفود) الذى هاجم فيه العقاد الإنسان والشاعر والفيلسوف ، إضافة إلى رسائله المعروفة من السحاب الأحمر وأوراق الورد والمساكين وحديث القمر ، وكتابه القيم (وحى القلم) ، والمؤسف أن كتبه قد نفدت وليس هناك من يقوم على إعادة طبعها ، لتظل ثروة أدبية تدل على

([1])د. شوقى ضيف : الأدب العربى المعاصر فى مصر ، ط٤ دار المعارف ١٩٧١/٢٤٧، ٢٥١ وأنظر أبو رية : وسائل الرافعى /١٥٧ .

ود. الشكعة الرافعى كاتب عربى ومفكر إسلاميا ، عالم الكتب ، بيروت ط ٢ ١٩٧٨/١٩.

([2])انظر : تاريخ أدب العرب صـ ٣ مصر ١٩١٠/٣٧٩ .

صاحبها ، الذى وقف وحده فى العقد الثانى من هذا القرن ، زعيما لمدرسة المحافظين على الميراث العربى فى وجه حركة التجديد التى كان لها زعماء كثيرون .

ولم ينل الرافعى حظه من العناية والاهتمام ، فلم تقم حول أدبه وفرة من الدراسات قياسا إلى غيره ، نظرا للحملة التى شنها عليه دعاة التجديد الذين استطاعوا إقصاءه عن الساحة الأدبية نوعا ما ، ومن ثم تندر الإشارة الواقعية إليه فى كتب الأدب ، فقد أرخ له الدكتور شوقى ضيف وهو يتحدث عن أعلام النثر ى الشعر فى كتابه (الأدب العربى المعاصر فى مصر) ، ولم يشر إليه الأستاذ محمد كرد على وهو يتحدث عن إحياء الأسلوب القديم فى كتابه (أمراء البيان) بينما أشار إلى معاصريه كالإمام محمد عبده وشكيب أرسلان ، مع أن أساطين الأدباء ومنهم الأمام وأرسلان قد اعترفوا للرافعى بإمارة البيان وإمامة اللغة .

وكشف طه حسين والعقاد عن عدائهما السافر للرافعى ، فلم يشيرا إليه كأديب له وزنه شعرا ونثرا ، بل هاجماه وجرحاه وقللا من شأن لآرائه ، ولعلها اعتقدا أنه ليس بالشاعر الذى يستحق الوقوف عند شعره ، لذلك هاجم الرافعى طه حسين هجوما مرا فى كتابه (تحت راية القرآن) ، كما هاجم العقاد وهلهل شاعريتة وأسلوبه فى الكتابة فى الكتابة (على السفتد) ، حيث كشف عن إعجابه بشعر شوقى الذى لم يكن يعجب به العقاد ، وفضل الرافعى بعض أبيات لشوقى على كثير من شعر العقاد ، وحذت الدكتورة نعمات أحمد فؤاد حذو طه . حسين والعقاد فى الغض من شأن الرافعى فى كتيبها (دراسة فى أدب الرافعى) ، وقد خاض الرافعى معارك قلمية حضارية أمام أعلام الكتاب مثل لطفى السيد ومحمد حسنين هيكل وغيرهما ، مما حال بين أدبه وبين الاحتفال به على الطريق السوى الذى يليق به كأديب عبقرى إسلامى ، يضاف إلى هذا أن الكتاب الوحيد الذى صدر عن الرافعى

فى الأربعينيات هو كتاب صديقه محمد سعيد العريان (حياة الرافعى) ، ينحو منحى التراجم وإن ركز فيه العريان على العوامل التى أثرت فى اتجاه الرافعى الأدبى .

ولا ينقص عدم الاهتمام بالقدر الكافى بأدب الرافعى من قيمته ومكانته الفنية ، فلا تزال إثارة كنوزا تكشف عن أنه يمثل منهج الأصالة التى تدعو إلى تبين الأدب ، أو إلى أن يكون أدبا إسلاميا يدافع عن البيان العربى ويتحدث عن روائع التاريخ الإسلامى ، وقد كانت قضية الرافعى الكبرى التى عاش ومات من أجلها هى الدفاع عن القرآن والعربية لغة القرآن ، ومن ثم نحى تأديب التاريخ والتزم المنهج الأصيل الذى سار عليه أهل الأصالة ، من تقديم الصفحات المتألقة من تاريخ الإسلام إلى الشباب المسلم فكان رائدا لعلى الطنطاوى وعبد الحميد مهدى وباكثير والعريان والسحار فى تأديب التاريخ ، وقبل أن يكتب طه حسين (على هامش السيرة) والعقاد (عبقرية محمد صلى الله عليه وسلم) .

والرافعى أديب ممتاز بأسلوبه وبيانه ، عاش فى جو أدبى بعيدا عن الضجيج السياسى وما يثيره من زوابع ، كان عملاقا فى العلم والشعر والنثر والنقد والجرأة كما كان شديد الإيمان بإسلامه وعروبته ، أدرك أن عليه واجبا هو أن يكون للإسلام حارسا وللفصحى حاميا وظهيرا ، يدافع عن أعدائها ويرد إليها مكانتها ببراهينه العقلية وعبارته اللاذعة وأسلوبه الرصين، كان الرافعى من أصحاب الفكر الدقيق والبيان الرقيق ، درس مجتمعه وعرف مكانه فيه وشعر بواجبه الدينى والثقافى ، فنزع المحافظين ودافع عن حصون القديم دفاعا مجيدا ، فأصبح إماما لمدرسة الأدب المتماسك وكاتب الفكرة الإسلامية فى أدبنا المعاصر ، مجد الفكره الصالحة وحارب الفكرة المنحرفة غير عابئ بالضرر الذى يعود من حراء ذلك ، وكان أدبه القوة والصدق والسمو وهو حرى بأن يلتفت إليه فى نطاق الفكرة

الوطنية واللحمة الإسلامية والغيرة العربية ، وهى أمـــور جعلتـــه يصطـــدم بأعلام الكتاب ومؤثرا فى أدباء عصره ، إذ كان سببا مباشرا حينـــا وغـــير مباشر حينا آخر فى عودة أكثرهم إلى الجادة .

لقد كان الرافعى أديب الفكرة الإسلامية دون منازع ، فى فترة زمنيـــة كان النيل من العقيدة دربا يستهوى دربا يستهوى كثيرا مـــن أدبـــاء العصـــر ليسيروا فيه ، كما كان عميدا لكتاب المقالة الإسلامية عميق الفكـــرة أصيلـــها فى ميدان الإصلاح الاجتماعى ، المستمد من استقامة تفكيره المنطلـــق مـــن ثقافة دينية ، ربطت فى سماحة ويسر بين السلوك الاجتماعى والأدب الدينـــى، وقد أودع أفكاره البكر فى هذا الميدان فى كتابه (المساكين) ، الذى بهر بـــه مفكرى زمانه الذين قرأوه بإحساس محايد بعيد عن الحسد والبغضـــاء ، فلـــم يخفوا إعجابهم بأسلوبه ومحتواه ، والإعجاب بأسلوب الرافعى أمر طبيعـــى ، لحسن إطلاعه على اللغة وقوانينها وممارسة أساليبها ، فقـــد عـــوض بقـــوة التوفير على الآداب الإسلامية قلة إطلاعه على الثقافات الحديثة كانت ســـنريد أدبه كمالا لو أتيحت له بشكل أكثر ولكن قلة إطلاعه عليها لم تحل بينه وبيـــن الخلود ، فهو أديب دقيق الملاحظة عميق التأمل واجتلاء الأسرار ويلتقى فـــى ذلك مع عباقرة الأمم الأخرى وإن جهل لغتهم ، وقد اتخذ من نفسه وعواطفـــه موضوعات صب منها قوالبه ، ثم انتقل من الذات إلـــى الموضـــوع بزعـــم التجديد إلى الواقع ([1])

والرافعى أديب يمثل المنهج البيانى أو القديم ، الذى يقوم على أخـــص خصائص الأوضاع اللغوية وأعمق أسرارها فى المفرد والمركب ، بـــل أنـــه صاحب مدرسة أدبية عربية خالصة لا تكاد تشبهها اليوم فـــى هـــذا المـــزاج العربى مدرسة أخرى ذات خطر ، مدرسة تتميز بالانفراد وذات طاقـــة فـــى

([1])الرافعى : وحى القلم ١٢/١ .

التعبير عن الكثير بالقليل المحدد المضغوط ، مما يدل على حيوية اللغة العربية وعظيم إمكانيتها الإدائية ، وقد أطلق عليها مدرسة الأدب الصعب واتهمها أعداؤها بالغموض وقلة الجدوى ، مع أن للرافعى كلاما فى (وحى القلم) تشعر منه أنه كان يميل إلى مذهب الوضوح فى الأدب والفن ، وربما كان مرد اتهامه بالغموض والصعوبة إلى تركيزه على البيان أو الصنعة البيانية ، مع الالحاح على قدرة العمل الأدبى فى التعبير عن استجابة الأديب الشخصية لحادث أو موضوع ، الربط بين قيمة العمل الأدبى والكشف عما يملكه الأديب من سمات خاصة ، تريد إلى التكوين النفسى وقدرة التعبير عن هذا التكوين ، كما ركزا على البيان باعتباره خاصية أسلوبية ومقياسا نقديا ، ورأى الفن تعبيرا بيانا يقوم على الهندسة والتصميم والبناء والزخرفة والتنميق ، فالبيان يعنى تمام التركيب فى معرضه وجمال صورته ودقة لمحاته ، أو هو صناعة الجمال وفائق فى جماله ، فإذا خلا من هذه الصناعة عاد عاديا من الاستعمال ، بعد أن كان بابا من التأثير فالأصل فى الأدب البيان والأسلوب فى جميع الفكر الإنسانى وفى طبيعة النفس الإنسانية ، ومن ثم كان يرى الأديب إنسانا ملهما بفطرته أصول الحياة ، وتعينه اللغة على هذا الفهم ، كما كان يرى الأدب ينتزع حقائق الدنيا أسلوب ويظهرها فى أسلوب آخر ، يكون أوفى وأدق وأجمل لوضعه كل شئ فى خاص معناه([1]).

وقد نمت قدرة الرافعى الشعرية مبكرة وهذبها بثقافته وقراءاته المتعددة الألوان المتشعبة الموضوعات ، فقد حفظ القرآن الكريم وجوده فى سن العاشرة كما حفظ الأحاديث ووعى بمواقف الأعلام فى التاريخ إسلامى ، حفظ أكبر قدر من شعر القدامى والمحدثين وخطب العرب ومحاورتهم ومنافراتهم فى الجاهلية ودررهم الخطابية فى الإسلام ، ومن ثم أنتج شعرا

([1])صدر الدين شرف الدين : الممتاز من أدب الرافعى ، دار عالم الكتب ، بيروت د ــ /٧ وأنظر ديوان الرافعى ، وتحت راية القرآن /٦٣.

تمثل فى ديوانه الذى سماه (ديوان الرافعى) فى ثلاثة أجزاء ، وقد ظهر وهو فى الثالثة والعشرين وقد أثنى عليه البازجى والإمام محمد عبده ، الذى شبهه بحسان بن ثابت المؤيد بروح القدس ، ويمثل الديوان نوعا من الشعر الذى يمثل أفكار صاحبه وعواطفه فى زمن عمره ، ثم فى ديوانه الذى سماه (النظرات) ، الذى نحا فيه منحى جديدا فى الشعر ، ونزع إلى مقصد من المعانى بديعا وجرى فيها على نمط من الشعر رفيع (١) . إضافة إلى الشعر المبثوث فى كتبه النثرية ، فله شعر فى (رسائل الأحزان) يكشف عنه كشاعر ومتفلسف يهتم بتحليل المشاعر فى جميع أحوالها وأطوارها ، كما يعنى بتحليل نفسية المرأة فى جميع مواقفها وحالاتها المختلفة ، وكان هدفه أن يضع للحب أسسا صالحة يسير عليها كل أمرئ حسب ما هى فى الأخلاق والشرائع لا كما فى خيال الشباب وعواطفه ، واستخدام فى ذلك تشبيهات عجيبة لأبراز معانيه ، وله شعر فى (حديث القمر) ، بل إن حديث القمر خطرات أفكار شعرية وغزلية وأدبية واجتماعية مسلسلة شائعة بأسلوب خيالى وقالب شعرى ، تعمده الرافعى قصدا إلى تربية ملكية التخيل فى الناشئة ، لأن الخيال أساس الإنشاء وركنه الركين ، وقال حفنى ناصف : إن حديث القمر طريقة مبتكرة فى الإنشاء تبدو فيه قطرات الشاعر فى حقائق هذا العالم (٢) ، وقال غيره : إن حديث القمر ضرب من أدب الإنشاء بأسلوب رمزى فى الحب ، على ضرب النثر الشعرى أو الشعر النثرى بأسلوب فنى ولفظ جزل (٣) ، وللرافعى شعر فى (أوراق الورد) ، وما أوراق الورد إلا معان ذهنية فى الحب والجمال ومادة فى الشعر والبيان (٤)

---

(١)الرافعى : ديوان الرافعى ١٣/٣ .

(٢)الجريدة ٨ ديسمبر ١٩١٢.

(٣)محمد سعيد العريان : حياة الرافعى /٧٤ .

(٤)السابق /١٤٥.

، وهى أعظم أثر فكرى أنتجه العقل البشرى عند بعض النـــاس ([1]) ، وفيـــها إلى جانب النثر قصائد ومقطوعات شعرية ، كقصيدة (يوم النوى) التى تشـــبه إلى حد بعيد مقدمة فيكتور هيجو فى وصف البائس ، يضاف إلـــى هـــذا أن الرافعى ألف (الساكين) معارضة لبؤساء هيجو، والبؤساء كما قال الرافعـــى : فكر فيلسوف تعلق بقلم شاعر فجاء ما تدرى أشعرا من النثر أو نـــثرا مـــن الشعر ([2]) ، ولعلنا لا نبالغ إن قلنا إن الرافعى عبقرية نشطت فى نظم الشـــعر نشاطا كبيرا ، وقد عبر عما يختلج فى نفوس الآخرين وحلل كلامهم ، أو هـــو إمام من أئمة الأدب فتح له التاريخ مكان المجد والخلود ، إمام لم يخلـــق إلا للنشاط والمثابرة ليقدم ثمرة أدبية من غير الأنواع المألوفة .

وقد طرق الرافعى أبواب الشعر من تقليدية ومحدثة ، وهو فى ذلـــك مهتاج النفس وافر الموسيقى رائع البيان ، كما طرق المشاكل الاجتماعية فقـــد كتب فى فلسفة تربية اليافعين ، وتحدث عن عادة زواج الشيوخ المسنين مـــن الصبايا الصغار ، وهى ظاهرة شاعت فى الإجيـــال الماضيـــة ، ولـــم تكـــن الفتيات ترحبن بها ، فقد كتب فى ذلك قصيدة عذبة

تصورا حوارا بين الشيخ المسن الراغب والفتـــاة الشـــابة المتأبيـــة ، ومنها قوله :

جاءها خاطبا وبين يديه ... قام عزرئيل واعظا وخطيبا

وتصدى لها فصدت وقالت ... قبح الشيخ أن يكون حبيبا

قال : هذا الشيب نور فقالت ... أوقدوا فى السراج هذا المشيبا

وبالرغم من حديثه فى الحياة فإنه لم يكن متعسفا أو غليظا أو نابيـــا أو متشددا فى أحاسيسه ، وإنما حمل بين جانبيه قلبا رقيقا ، فكان محبـــا عاشـــقا لمى زيادة ألهمته هذه الأدبية أروع قصائده الغزلية كقوله :

([1])أبو رية : رسائل الرافعى /٥٥ .

([2])الرافعى : وحى القلم .

ها أنت مريم والهوى عيسى وعيسى كان رد الروح من آياته
قولى لكاهنك الذى قدسته قولا وعودى فاسمعى لصلاته
فلسوف يزعم أنها فى آية نزلت من الإنجيل أو توراته

وكان الرافعى عاشقا من طراز جديد يضع كرامته إلى جانب قلبه لا يفترق إحداهما عن الآخر ، ومن ثم خلف شعرا غزليا رائعا يفيض بالرقة والنقاء ، كقوله :

قلبى يحب وإنما أخلاقه فيه ودينه

وانفعل الرافعى كغيره من الشعراء بقطار السكة الحديدية ، وكتب فى ذلك قصيدة هى أرق ما قيل فى الموضوع ، إذ غلبت عليه شفافية الشاعر على مادية المراقب ، ولم ينس الرافعى ارتباطه بالشام فكتب القصائد الرقيقة والأبيات الأخاده فى ذكرها ، كقصيدته فى الحنين إلى طرابلس لبنان ، قصيدته مصر والشام وافتخر الرافعى بترفعه عن الصغائر وإبائه وعفته وسمو نفسه وارتباطه بالمعانى السامية والقيم الخلقية ، معبرا فى ذلك عن ذاته فى شعره ، كما افتخر بنسبته إلى عمر ابن الخطاب رضى الله عنه فى قصيدة (أبى) التى نشرت فى مجلة المقتطف فى سبتمبر عام ١٩١٩ م ، وللرافعى قصائد توجه بها إلى شخصيات إنسانية عالمية تدل على نزعته الإنسانية ، وتمثل هذه القصائد عاطفة يشعر بها الناس جميعا ، عاطفة تبقى وتدوم وتقرن بين الأدب العربى وغيره من الآداب ، على أساس تصوير مستوى مطلق تصبح فيه القيم الإنسانية ثابتة فى جوهرها ، كقصيدته فى غليوم التى مس فيها الوضع السياسى فى البلاد حينئذ ، مع أنه احتال فى نظامها حتى لا يدرى أهى مدح أم ذم ، قال (وقد وضعتها على هذا النحو من توجيه الذم بما يشبه المدح ، تحقيقا لوقعها فى نفوس المصريين الذين يحبون هذا الإمبراطور ، كأنه إمبراطور الإسلام مع أنه لم يكن إلا

شؤما)([1])، يضاف إلى هذا أن الرافعى كتب الأناشيد الحماسية ، وقد حالفه النجاح فى كثير منها وفاز فى بعضها بالجائزة الأولى ، لأنه ذو ذوق فى فهم الأجواء والمناسبات أدرك به طبيعة الشباب والشابات ([2]) .

وقد وقر فى أذهان بعض الدارسين أن الرافعى كاتب أكثر منه شاعر، ذلك لأنهم لم يفهموا مشاعره على حقيقتها فانتقصوا من قيمته الشعورية ، ونفوا أن تكون له تجربة شعرية ، إذ أن محصوله اللغوى والتاريخى من موهبته وذهنه أقوى وأثرى من عاطفته ، ومن ثم قدم صورا غائمة غامضة لا تهدف إلى إبراز تجربة ولا تعالج أزمة وجدانية ، فتعطيها من الألوان ما يحدد سماتها ويظهر قسماتها ، حتى تستطيع أ، ننفعل بإنسانيتها وأن تشارك فى أزمتها ([3]) ، وقالوا أنه ذو خيال ملفق صناع فى التلفيق لا تدرى ما يقول على وجه التحقيق واعتبروا المعانى الدقيقة التى عاشها وصورها ألغازا ، كوصفه لصاحبته ([4]) ، واعترضوا على بعض ألفاظه ، كلفظة يدمدم فى قوله : ([5])

به يدمدم الحب على قلبه كأنه فى نفسه ينهدم

فقد قالت الدكتورة نعمات فؤاد : هل كلمة يدمدم لفظ شعرى يرد فى شعر الغزل ، كما قالت أين الرافعى ممن يتفاصحون بالألفاظ ، فإذا جانبه التوفيق فى اختيار اللفظ اللائق منها فى موضعه ، فإن صممه المبكر هو الذى جعله بمنأى عن موسيقى الألفاظ وتذوق جرس كل من وترتيبه على حدة فى مكانه من العبارة كلها ، فإذا كان صوت اللفظ مهموسا رقيا

([1]) أبو ريه : رسائل الرافعى /٥٥ .

([2]) السابق /٢٥١ .

([3]) محمد عبد الحليم أبو ريده : دراسات فى الأدب المعاصر ، ١٩٥٨م/٢٤٩ .

([4]) الرافعى : أوراق الورد /٤٩.

([5])الرافعى : السابق /١٠٥ .

كالهفهفة، ضل الرافعى طريقه إليه لأنه فقد وسيلته إليه ، ومن ثم يشبه الحب وطيف الحبيب بألفاظ المدفع والزلزال والعاصفة (١) .

والحق أن الرافعى بدأ شاعرا غير كلف بالكتابة وارتفع بشعره إلى أقدر القراء الفحول ، بسبب موهبته الأصيلة وإحساسه المرهف واستعداده الكامل ، الذى صادف أرضا خصبة فأينع وأثمر خير الثمرات ، وقد وضع الرافعى نفسه بعد الكاظمى والبارودى وحافظ ، ثن عاد ورأى نفسه فى مقدمة هؤلاء وربما خطر بباله أن يكون ذات يوم أميرا على الشعراء ، وأطلق على نفسه شاعر الحسن ، وأطلق عليه شارح ديوانه شاعر الشرق . بل أنه كان فى يوم ما شاعر الملك ثم غضب لكرامته، حين تصور أن تصرفا ما صدر عن ناظر الخاصة الملكية فى حقه قد مس كبرياءه ، فأسمع كبير القصر (الملك) ما لم يكن يتوقعه من مواطن متواضع الحال كالرافعى ، وكان طبيعيا أن يحرم من هذا اللقب ، أن يصادف كثيرا من المتاعب المالية والاجتماعية ، غير أنه كان يضع نفسه حيث يرى أنها أهل له ، كشاعر مبدع وكاتب بارع ومؤرخ عميق الفهم لفلسفة التاريخ وقضايا الأدب ، وناقد ثاقب النظر لماح الخاطر وافر الإنتاج ، ولغوى يفهم سر العربية التى أسلست له قيادتها طوعا وحبا ، فكانت جملته فصيحة محتوى الألفاظ مشرقة الديباجة ثرية مناهل المعانى رشيقة فضائل المضمون .

كان الرافعى إمام مدرسة التجريد فى الفكرة والأسلوب ، محافظا على الجملة القرآنية ملتزما الصفة الإسلامية (٢) ، وتميز بجديته فى الحياة ورهبنته فى محراب لغة القرآن ورحاب التدين ، ومنى ثم تتهذب الحياة بواقعها الأخلاقى فى أدبه ، كما تميز مفعم بالمعانى والمشاعر وروح

---

(١) د. نعمات أحمد فؤاد : دراسة الرافعى / ٥٥ . ٨٩. ٩٧.

(٢) الشكعة : السابق /١٠٥.

الابتكار والإبداع ، ومن ثم لم يرض أن يبقى فى الدائرة التى كان الأولون يدورون حولها ، وتبعهم فى ذلك المتأخرون من أدباء الوصف ، وتتجلى قدرته فى الإبداع والابتكار فى الجمع بين فلسفة الفلاسفة وأدب الأدباء ، وهذا هو الأدب الحق (١) ، وليس صحيحا أن شعر الفترة الأولى من حياته ضعيف ، لأنه كان من شعراء المعانى الذين اهتموا بها كل الاهتمام ، يؤدونها فى أى لفظ تهيأ لهم ، لذلك جاء فى شعره كثير من السقط المهلهل النسج (٢) .

والرافعى شاعر ناضج الأسلوب بلغ درجة قصوى فى النضج الفكرى والبيانى منذ بداية حياته الشعرية ، كان ينتخب المعانى ويختار الألفاظ ويكتب بحذر ويتفنن فى العبارة ، وكانت الأفكار تتصارع عليه ولم يكن يستطيع الخلاص منها إلا حين يسجلها خاطرة خاطرة ، وبذلك أدى دوره كاملا فى الرسالة الثقافية (٣) ، وهو مجازى التعبير بيانى الأسلوب ويمتاز أسلوبه بالسلامة والسلاسة والإيجاز العميق وهى نتائج حتمية لاكتمال عدته وغزارا مادته وصفاء ذوقه وذكاء فهمه (وأشد ما يروعك منه قوة الفن ، التى تخلق المادة ، وتصنع القالب ، وتضع اللفظ وتحدد الرسوم ، وتوضح الفروق ، وتتصرف بمفردات اللغة تصرف المصور البارع بألوان الطيف إلى جانب حركة الذهن)(٤) ، وطبع الرافعى الفياض هو الذى أمده بالبيان إذ كان عليما بأسرار اللغة ، وكان يرى البيان (بقية من منطق الإنسان اختبأت فى زاوية من النفس ، فما زالت بها الحواس حتى وزنتها على ضربات القلب ،

---

(١) الرسالة يونيو ١٩٤٣م عدد ٥٢٠.

(٢)د. عمر الدسوقى : فى الأدب الحديث ٢/٢٣٢.

(٣) ضيف الله الأخضر ابن مسعود : نثر الرافعى /٤٨.

(٤) أحمد حسن الزيات : وحى الرسالة ١/٤٤٠.

وأخرجته بعد ذلك ألحانا بغير إيقاع) (١) ، ويعرب أدبه عن هذا المنهج فيصور لنا غزارة المادة وحرية التصرف فى اشتقاقاتها واستعمالاتها ، كما يصور نزعته المجازية ووفرة ألوانها ، والمجاز أساس البيان يمنعك أن تفهم إلا بالقرينة والعلاقة ، ويكتفى باللمحات الدالة والإشارة الموجزة والكتابة الرائعة والتفنن فى أساليب القول على وجوه شتى ومذاهب كثيرة (٢) ، كما كان يرى المجاز فى هيئة الأساس بالمعنى ، الذى هو الرؤية الروحية أو الصوفية ، وسبيلها إلى الناس الأسلوب (٣) ، وقد مزج الرافعى الأدب بالحكمة وكان له من عمق التفكير ودقة التعبير وصدق الحس وصفاء الوجدان ورقة الشعور آيات بينات ترفعه إلى أعلى مقام فى عالم الخلود ويتميز أدبه بالجرأة والحرية ، وحرية أدبه مصدرها القرآن الكريم ، القرآن من جهة الأدب غاية الجمال ، ومن وجهة الفضيلة غاية الخير ، ومن جهة الفلسفة غاية الحق .

ويتميز الرافعى برونق العبارة وجزالة اللفظ والاعتناء بأسلوبه ، وكان يجمع اللفظة إلى أختها بما يلائمها ويجانسها فى جرسها أو حروفها ، إضافة إلى الصقل والتهذيب ــ وليس لألفاظه الجزلة الرصينة من تفسير إلا طبعة الصارم ، الذى لم يكن يرضى بالألفاظ اللينة ولو كانت معبرة ، ولو فى موضوع الحب ، لأن طبعه قوى صلب ، فلم تكن وسيلة للتعبير عما يجيش بنفسه إلا الألفاظ القوية التى رآها نوعا من الافتخار لأنها قوية ، والقوة عنوان الفحولة والرجولة ، كما يفهم من نقده لشعر شوقى والبارودى ،

---

(١) الرافعى : ديوان الرافعى ١ / ٤ ، وتحت راية القرآن /٦٣.

(٢) الزيات : وحى الرسالة ٤٤١/١ ، د . حلمى مرزوق : تطور النقد والتفكير الأدبى ، دار النهضة . بيروت ١٩٦٥ / ٣٦٣ .١٦

(٣) الرافعى : تاريخ أدب العرب ١ /١٧٩

والقول بأن الصمم وراء ألفاظه القوية خاطئ ، إذ لم يكن المتنبى صما وألفاظه كالرعد أو كقعقعة الرحى على حد تعبير أبى العلاء المعرى ([1]) .

ولا ينكر واحد من المنصفين علم الرافعى بفنون الشعر ومحاسنه ودقائقه وهو من هو فى شعر المعانى ، وقد كان يعبر عن معان نفسية يعيها شعوره الباطن فيبرزها كما أحسها وشعر بها بما امتلك من الوسائل اللغوية والأسلوبية فى التعبير ، كالتفلسف ، فقد كتب شعرا فى (فلسفة اللذات) وفى (السريرة وفلسفتها) ([2]) وحاول أن يكون أديبا فيلسوفا ، وكان يقتصد فى أسلوبه ، فهو يفصل اللفظ على قدر المعنى ، وأسلوبه جيد التقسيم سليم المنطق بعيد الإشارة ، تجد فيه النفس الشاعرة من أنوثة العاطفة - إن صح التعبير - ما تجده النفس المنطقية من فحول الفكرة لغلبة الفكر على الشعور وسطوة الفن على الطبيعة فى أدبه ([3]) ، ويتميز أسلوبه كذلك بالجرس الموسيقى ، إذ كان يعنى بالنغمة ([4]) ، وتأثر فى أسلوبه العبارة القرآنية فى بلاغتها وسموها ، وكان يقيس لفظه بمعناه ويربط أوله بآخره ويجمع بين أطرافه كل ما ينبض به قلبه ، ولا تعقيد فى أسلوب الرافعى ، الذى تميز بالقدرة على الاستفادة من الكلمات العلمية والاصطلاحية ، وكثرت فى أسلوبه المعانى الدينية التى تناولها بطريقة تحليلية فى أسلوب أدبى ، كما كثر فى أسلوبه التهويل والتشبيهات والاستعارات والاقتباسات وإدخال الحكم والأمثال فى بيانه ، ويرى أحد الدارسين أن أسلوبه يخلو أو يكاد من النكتة الطريقة لأنه صاحب عمل وجد ، وكانت له طريقتان فى إبراز معانيه ، الأولى شكلية تتعلق بالألفاظ أكثر مما تتعلق بالمعانى ، والثانية جوهرية لشدة تعلقها

([1]) ضيف الله الأخضر ابن مسعود : نثر الرافعى / ٣١٢ وبعدها .

([2]) الرافعى : ديوان النظرات ٧٩/٢.

([3]) الزيات : وحى الرسالة ٤٤٩/١ .

([4]) الرافعى : وحى القلم ٢٦٢/١ .

بالمعانى المعبرة عن خلجات النفس وخباياها ،وتتجلى الأولى فى حديثه عن المعانى المشتركة ، إذ يعبر عن المعانى منها بلفظه الخاص ، فإذا هو أجمل مما كان وكأنه خلق خلقا جديدا ([1]) ، يقوم على حسن التصرف والتوليد الذى كان يمكنه من التصرف فى العبارات ، بينما تتجلى الثانية فى المعانى النفسية وقدرته العجيبة على نقلها إلى الآخرين ، وقد لازمته طريقة الغوص فى أعماق النفوس منذ الصغر ، إلى أن أصبحت عنصرا أساسيا فى أدبه ([2]) .

وثمة ملاحظات حول شعر الرافعى ، من أهمها : أنه من الصعب أن ندرج الرافعى تحت طائفة من طوائف الشعراء المحدثين ، فهو ليس من مدرسة الديوان أو أبولو أو الإحياء ، وإن مال ذوقه الشعرى إلى البارودى ، فقد ظل علمه فردا بنفسه وشعره ، الذى دار فى التهانى والمراثى والعزل والمشاعر الإسلامية والوطنية ، وأحاسيس المرارة من حالة مصر الاجتماعية حينئذ ، إلى جانب الاهتمام بقضية المرأة العربية وتحذيرها من المغالاة فى تقليد الأوربيات اللائى لا يعصمهن دين عقيدة ، وقد أراد الرافعى أن يبعث شعور الثقة فى بنى وطنه ، وعنى بوصف الطبيعة والمخترعات الحديثة من الخيالة وآلة التصوير والسنوغراف والترام والقطار وغيرها ، وقد اتهم شعره بالغموض وجاءه ذلك عن طريق تدقيقة فى المعانى تدقيقا يصل إلى حد الغموض أحيانا ، وقد قيل له : إن الناس لا يستطيعون إلى معانى شعرك فرد بقوله (خير للناس أن يرتقوا إلى من أن أنزل إليهم) ، ويذكرنا ذلك برد أبى تمام حين سئل : لماذا لا تقول ما يفهم ؟ فأجاب : لماذا لا تفهم ما يقال ؟ ، ومسألة التعقيد والغموض مسألة نسبية ، فإذا كان الرافعى دقيقا فى اختيار ألفاظه وانتخاب معانيه ، فإن ذلك لا يعنى غموضا أو تعقيدا،

([1]) السابق ١٢٦/١

([2]) ضيف الله الأخضر ابن مسعود : نثر الرافعى /٢٩٧ .٣٢٣ .

لأنه لم يحمل اللغة أكثر مما تطبق ، كما فعل أبو تمام ، وإنما عبر عن المعانى بأسلوب بيانى واضح فيه من الجمال الفنى الشىء الكثير .

ومن أهم الملاحظات كذلك ، أن الرافعى يبدو فى الظاهرة شاعرا تقليديا ، بحيث يمكن أن نرد كثيرا من معانيه وتعبيراته إلى معانى القدماء وتعبيراتهم ، إذ نشعر فى شعره بروح المتنبى وأبى تمام والبحترى وابن الرومى ودعبل الخزاعى وابن نباته وابن زيدون وأبى البقاء الأندلسى وابن هانى .. وغيرهم من الأقدمين ، وقد وجه إلى الرافعى فى حياته بأنه شاعر مقلد ، وفى ديوانه رد على من وجه إليه هذا الاتهام (١) ، وتتأكد فكرة تقليد القدماء إذا نظرنا إلى موضوعات شعره ، فقد نظم الشعر فى الفنون والأغراض التقليدية على النحو التالى :

(أ) الحكمة والتهذيب ، فتحدث عن كمال التربية والاعتماد على النفس ، والعلم والعمل والاجتهاد والوطن والشرف بالمعارف ، والنفس الأمارة بالسوء والفقر والغنى أو طغيان الأغنياء على الفقراء ، والحرب والسلام والتوفيق والجد وتخير الأصحاب .

(ب) الوصف ، إذ وصف القرية وفجرها والعيش فيها ، كما وصف الخيام والقصور والصور المتحركة وغروب الشمس ، والزهر والغصون والرياض فى عيد الفيروز ، كما وصف الخمر ورقص بعض الغادات.

(ج) المدح ، فقد مدح السلطان عبد الحميد وسماه أمير المؤمنين وخليفة الرسول وهنأه بعيد جلوسه على العرش ، كما مدح خديوى مصر وهنأه بعيد جلوسه على العرش كذلك ، كما مدح الإمام محمد عبده والبارودى وعبد المحسن الكاظمى ، وغيرهم .

---

(١) الرافعى: ديوان الرافعى ١١٩/٢.

(د) الغزل والنسائيات ، فقد تحدث عن الصد والهجران وألم الفراق والجب والعشق والغرام ، كما تحدث عن الموضة والمرأة وحلى النساء وقارن بين المرأة العربية والمرأة الغربية .

(ه) الرثاء ، ولم يكن مكثرا فيه ، لأنه لم يكن يوافق طبيعته ، إذ كان يعتقد أن الرثاء فى زمنه صار حرفة وصنعة ، ولكنه رثى أمير

(و) أفغانستان وعبد الرحمن الكواكبى يضاف إلى هذا أن هناك مجموعة من القصائد التى تشتمل على معان مختلفة ، من الغزل والحكم والتقاريظ والتوسل والشكوى وهلال الشك والتمنى والوعظ .

ويبدو الرافعى فى كل هذا شاعرا تقليديا ، إذ يمدح متكلفا بالمعانى التقليدية بلا جديد كلا من السلطان والخديوى ، لأنه يمالق ولا يعبر عن عواطفه ، ويشبه البارودى والكاظمى بأبى تمام والبحترى والمتنبى وعمر بن معد يكرب ،مجنون ليلى ، ويصف الخمر على طريقة آدم بى عبد العزيز والوليد بن يزيد ودعبل الخزاعى ، ووصف الخيام فى القرن العشرين وهى رمز البداوة ، ونص على خيام امرئ القيس خاصة (١) ، ولجأ إلى أسلوب المعارضة ، فقد عارض دالية النابغة الذبيانى المشهورة (٢) ، كما عارض المتنبى فى بعض قصائده (٣) ، كما عارض أبا البقاء الأندلسى ، وأفاد من فنية أبى تمام والبحترى فى وصف الربيع وهو يصف نضرة الرياض وتغريد الطيور فى عبد البذور ، وفى الغزل نجد غزله أشبه بغزل مجنون ليلى ، كما عارض المتنبى فى إحدى قصائده الغزلية (٤) ، كما أنشأ الغرل على

---

(١)الرافعى : ديوان الرافعى ٥٢/١.

(٢)الرافعى : ديوان الرافعى ٥٠/١.

(٣)الرافعى : ديوان الرافعى ٩١/٣.

(٤)الرافعى : ديوان الرافعى ٧٧/٢

طريقة ابن زيدون معارضا نونيته المشهورة ([1]) ، ولا يستوقفنا فى حديثه عن العزل والحب إلا قصيدة واحدة ، هى التى سماها شارح ديوانه (فلسفة الحب) ، يضاف إلى هذا أن الرافعى ضمن شعره كثيرا من شعر القدماء ، فحين تحدث عن المأمون العباسى ومجده ، ضمن قصيدته بيتا لأبى الفتح البستى أنهاها به ، وهو :

ألم تر الشمس فى الميزان هابطة لما غدا برج نجم اللهو والطرب

وفى حديثه عن الوطن أنهى قصيدته ببيت لزهير بن أبى سلمى هو :

ومن بك فضل فيبخل بفضله على قومه يستغن عنه ويذمم ([2])

وفى حديثة عن العلم والعمل وتفجعه على مجد الشرق نجد المعانى التقليدية المستوحاه من القدماء ، وهى معان نجدها فى قصيدته عن عمر ابن الخطاب ، التى تنحو الدينى بلا معنى جديد يستوقف الذهن والفكر ، وأقرأ قوله ([3]) :

وهل سوى نفسه قد سودته وهل تنال إلا بشق النفس آمال

فستجده مستوحى من قول عامر بن الطفيل :

فما سودتنى عامر عن وراثة أبى الله أن أسمو بأم ولا أب

ولا شك فى أن استيحاء معانى القدماء كان له أثره على الصورة الشعرية عند الرافعى ، بحيث يمكن القول بأنها صورة مستمدة من التراث القديم ، فالمرأى عنده لا تزال تشبه بالظنى والغوال وغصن البان كما كان

([1]) الرافعى : ديوان الرافعى ١١٣/١.

([2]) الرافعى : ديوان الرافعى ٢٣/١.

([3]) ديوان الرافعى ١٥/١.

الحال عند القدماء ، حين أراد أن يعبر عن ما الأسنان تأثر بما ذكره كعب بن زهير فى بردته (١) ، وحين وصف القرية قال (٢) :

وهن من الأزاهرة فى شفاه كما يحلو اللمى بعد الهجوع

وأصل المعنى فى هذه الصورة لعقلمة فى قوله :

يحملن أتربه نضج العبير بها كأن تطيبها فى الأنف مشموم

ومنه أخذ ابن الرومى وغيره تشبيه المرآة بالروضة لطيب ثغرها فى السحر غلاف أنفاس البشر ، وقال الرافعى (٣) :

أنا والله أشتهى الموت فى الحب ليأسى على هذا البخيل

وهى صورة معانيها مستمدة عن القدماء كذلك .

وفكرة التقليد واستيحاء معانى القدماء ليست عيبا أو نقصا فى حد ذاتها لكن الرافعى كان يراها كذلك ، لأنه كان يثق فى شاعريته ثقة كبيرة ، ومع إيماننا بإفادة الرافعى فنيا من التراث ، إلا أننا لا نعتبره عبئا على القدماء أو علا عليهم ، يلتقط ما قالوه دون قدرة أو موهبة فنية ، لقد قرأ التراث وأدام النظر فيه وحفظ منه الكثير وتأثر بما قرأ وحفظ ، وظهر أثر ذلك فى شعره ، ولكنه لم يعدم قدرته الفنية الخاصة أو موهبته الخيالية ، التى تجعله متميزا فى صياغته وتعبيره ومذهبه الفنى ، ومن ثم لم يكن الرافعى يؤمن بما يؤمن بما ألصقه به المجددون من دعوى التكلف أو تأثر الأقدمين التأثر العقيم ، فلم يكن بعيدا عن العصر . واحتذى أساليب الأقدمين فقط فى النسق اللغوى ، فلم يخرج عن قاعدة أو يشذ عن أصل ولم يسخر من القومية التاريخية للغته بل

---

(١) الرافعى : ديوان الرافعى ١/١٠٥.

(٢)الرافعى : ديوان الرافعى ١/٤٧.

(٣) الرافعى : ديوان الرافعى ١/٨٦.

دافع عنها ، جمع بين خصلتين : المحافظة على اللغة ونسقها الأصيل ، ثم التجديد فى ألفاظها وأساليبها بما يساعدها على الازدهار والنمو ، الذى يناسب التطور والذوق العربى المعاصر ، ومن ثم قيل إن أفكاره أكثر تقدمية من أفكار بعض الذين رموه فى حياته بالرجعية (١) ، وقال الرافعى (ليس يكون الأدب أدبا إلا إذا ذهب يستحدث ويخترع على ما يعرفه النوابغ من أهله وجرى على ما يعرفه النوابغ من أهله ، وجرى على إبداع فى غير تقليد ، وتقليد فى غير اتباع ، واتباع فى غير تسليم ، فلابد من نبوغ الرأى واستقلاله ، ليخرج نوع من الأدب هو نوع من التحول فى الوجود الإنسانى، يرجع بالحياة إلى ذوات معانيها ، فلا يكون للأديب تعريف سوى أنه المقلد الالهى) (٢)، ومن ثم حاول الرافعى التجديد وعبر عن معان حديثة فى العواطف والحب والجمال والبغض (٣) ، بل إنه بلغ الغاية القصوى فى تصوير الخلجات النفسية ، وأبدع فى وصف المرأة ظاهرها وباطنها (٤).

وفكرة معارضته القدماء التى دعمت القول بتقليديته موضوع نظر وخلاف ، فقد يتفوق الشاعر المعارض فى معانيه وصياغته وصوره ، فقد قيل إن الرافعى فى قصيدة الشرق المريض ، التى استعرض فيها حالة الشرق على نحو حزين كئيب ، وأبان عن عجزه أو طغيان الجبابرة الذين عزوه وسلبوه كل خصاله حتى الإرادة ، والتى يقول فيها (٥) :

يا من لهذا المريض المدنف العانى مردد النفس من آن إلى آن

---

(١) جريدة المساء ٢١ أغسطس ١٩٥٩م.

(٢) الرافعى : وحى القلم ٣/ ٢٤٠.

(٣) د. شوقى ضيف : الأدب العربى المعاصر فى مصر /١٩٤.

(٤) مجلة الهلال يناير ١٩٢٧م.

(٥) الرافعى : حديث القمر /١٢٣ وبعدها .

إذا رأى الليل ظن القبر شق له أنجمه آثار أكفان

مطرح الهم فى كل الجهات فما يرى بكل مكان غير آخران

تؤزه كبد حرى معلقة من الأضالع فى أعداد ميزان

لهفى لجوهرة زهراء ما سطعت فى جيد غانية أو فوق تيجان

لهفى لريحانة خضراء ما قطعت إلا لتذبل فى راحات نشوان

لهفى لغانية عذراء ما وضعت إلا بمنزل أسواء وأضغان

لكى معنى جميل ما يلائمه كما تمازج ألحان بألحان

وليس يطرب صوت الماء منحدرا كما ترى واقعة فى سمع ظمآن

فيا إلهى إذا أجريت فى قدر يوما بأن يلتقى فى الناس ضدان

فاجعل للطفل معنى فى التقائهما كيلا يكون من الضدين زوجان

فما خلقت كمثل الغش فى امرأة ينالها رجل يوما بطغيان

ولا خلقت كمثل الذل فى رجل تسومه امرأة سودا بعدوان

وينهى الرافعى هذه القصيدة بقوله:

يا يابانيا بقلوب الناس يجعلها قصر الحياة تبصر أيها البانى

أسس على الحب لا تلقى القلوب سوى وضع لكل فؤاد شكل الثانى

فلست تبنى سوى دار إذا خربت أركانها خربت من كل عمران

دار السعادة الحب دار فى الأحباب دار الغرام الخالد الهانى

قيل إن الرافعى عارض بها قصيدة أبى البقاء الأندلسى ، التى تصـــور ما آل إليه حال المسلمين حينذاك من الضعف والخور ، مما أدى إلى ســـقوط

الأندلس مدينة بعد أخرى على أيدى فرديناند الثالث ، ودقت فـــى مدارســـهم أجراس الكنائس وأصبحت نساؤهم عرضه لعبث العلوج ، قال أبو البقاء :

تبكى الحنيفية البيضاء من أسف كما بكى لفراق الألف هيمان

على ديار من الإسلام خالية قد افتقرت ولها بالكفر عمران

حيث المساجد قد صارت كنائس ما فيهن إلا نواقيس وصلبان

وطفله مثل حسن الشمس إذ طلعت كأنما هى ياقوت ومرجان

يقودها العلج للمكروه مكرهة والعين باكية والقلب حيران

فقد نهج الرافعى منهج هذه القصيدة فى كل شئ ، لأنها تنطبـــق علـــى الحالة التى أصبحت عليها بلاد العرب المسلمين بسبب الغزو الأجنبى ، الـــذى قضى على مقومات الأهل أو كاد والحق إن ظاهرت الاقتداء والمعارضة فـــى قصيدة الرافعى ، لكنها معارضة تقوم على التأثر والإعجاب أكثر مما تقـــوم على مجرد التقيد فى الوزن والقافية ، ومن ثم تختلف القصيدتان فى بعـــض الأمور ، فقصيدة أبى البقاء ذات موضوع واحد وذات نغمـــه واحـــدة فـــى الجرس ، وأسلوبها على وتيرة واحدة ، فليس أولها بأحسن مـــن آخرهـــا ولا وسطها بأبدع من طرفيها ، بينما تتفاوت قصيدة الرافعـــى فـــى أجزائـــها ، فأولها يختلف عن آخرها ووسطها غير أولها وآخرها ، فقد أحسن الرافعـــى فى الجزء الأول فجاء أسلوبه قريبا من أسلوب أبى البقاء ، والسبب فى ذلـــك أن الجزء الأخير كان مما يتعلق بخلجات النفس ، وقد عرف الرافعى بـــهذا الضرب من الشعر حتى إنه سمى نفسه بشاعر الحسن (١) ، وقصيدة الرافعى بشكل عام من أحسن قصائده ، فقد أجاد فيها إجادة ملحوظة وإن لم يســـتطع أن يسير فيها على وتيرة واحدة ، وسبب هذه الإجادة أمـــران ، الأول : أنـــه

---

(١)الرافعى : ديوان الرافعى ١٢/٢.

شعر بالأسى ومرارة الهزيمة بما أصيبت به الأندلس لاطلاعه على قصيدة أبى البقاء ، مما جعله يفكر كثيرا فيما كانت عليه وفيما آلت إليه ، ثم جعله هذا يقارن بين الأندلس وبين أمته التى يعيش بين ظهرانيها ، فإن الداء واحد والمستقبل محفوف بالمخاطر ، والثانى أن القصيدة أخذت وقتا طويلا فى إعدادها ونظمها (١) .

فالرافعى أمام من أئمة اللغة والبيان والمجددين الحقيقيين . فهو مجد آتاه الله قدرا على التصرف فى القول والغوص على المعانى البعيدة ، يخضعها لقلمه البليغ وعلمه الواقع ومن ثم طرأ تطور فكرى على أسلوبه ، إذا كان فى البداية يتكلف لدرجة تشعرك بأن الجملة لا ترتبط بأختها ، والمعنى لا يبدو إلا تحت الأفكار المقتسرة ، وفى أواخر أيامه اشتهر بالصقل والتهذيب والجرى وراء الألفاظ الرنانة والجرس الموسيقى واعتنق مذهب الأدب الحى واعتقد أن الأديب لا يسمى أديبا ، إلا إذا بلغ بأسلوبه وتفكيره وتنزعه مبلغا يبعث اللغة من مرقدها ، ويجعلها حية تزخر بالحياة والقوة ولا تتأتى هذه الصفة إلا إذا جمع بين ما يرضى الوجدان والقلب والعقل والفكر ، من ثم كانت لغته سليمة محببة إلى طائفة من الأدباء ، كما كانت عبارته عميقة وليس عمق العبارة معناه تقليد القديم أو البعد عن الجديد ، إنما معناه أن خصائص العمق من مميزات شعر الرافعى ، الذى كان يعتنى بأسلوبه عناية شديدة ويرى أن التجديد ليس معناه عقوق القديم لقدمه والإقبال على الجديد لجدته ، بل يتجلى التجديد فى تهذيب القديم وتقديمه إلى جيل اليوم فى أجمل صورة ، وأحكام الصلة بينه وبين ما وصل إليه التقدم العلمى فى العصر الحاضر ، بذلك رفع الرافعى أدبه وشعره إلى الذروة ، وأدخل

---

(١) ضيف الله الأخضر : نثر الرافعى /١٣٦ وبعدها .

عليه من عناصر الجمال والخيال الملهم ، وحافظ على الميراث القديم بما يلائم العصر ويبعث اللغة قدما إلى الازدهار والتطور (١) .

ومن ثم فقد امتلك الرافعى كثيرا من الصور الشعرية ، التى تحوى قمة الإبداع المميز والمعبر عن قدرته الخاصة فى ابتكار المعانى والتشكيل اللغوى المناسب ، وهو يتحدث فى أى موضوع ، فقد استطاع بقدرته التخيلية أن يبتكر معنى جديدا فى صورة شعر رائع النسج والبيان وهو يتحدث عن خزان أسوان ، فقد تخيله وصيا على ماء النيل الذى كان يصب فى البحر المالح هباء ، وقال (٢) :

فأغروا به الخزان حتى لخلته وصيا يريه كيف ينفق بالقدر

وبلغ قمة الإبداع التصويرى الذى يمتد بالمعنى وهو يتحدث عن عدل عمر بن الخطاب وعطفه ، وقال (٣) :

ولم يكن أحد يلهيه عن أحد كأنه ولد والناس أطفال

فعمر والد متميز بالعدل والعطف والرحمة على أطفاله وهم الناس جميعا ، وقال الرافعى (٤).

يبصرها من خلف أضلاعه كأنما يبصرها من زجاج

---

(١) الرافعى : تحت راية القرآن /١٩ ، وأنظر مجلة الزهراء ١٥ ربيع الأول ١٣٤٣ هـ.

(٢) الرافعى : ديوان الرافعى ٢٧/١.

(٣) الرافعى : ديوان الرافعى١٥/١ .

(٤) الرافعى : ديوان الرافعى ٥٦/١.

فقال شارح ديوانه : إن هذا مما لم يسبق إليه ، إذ ليس هناك أجمل من تشبيه الضلوع التى أضناها الهوى بالزجاج ، لأنه شفاف سريع الكسر فكأنها كذلك وهذا الأبدان ، وقال الرافعى ([1]) :

يا من سمعتم بالهوى إنما الهوى دم ودم هذاك يصبو وذا يضنى

وهى من الصور الجميلة تعنى أن العشق ليس كما يظن من مليح يسحن ، ولكنه دم يتحرك دلالا ودم يتحرك غراما ، وقال ([2]) :

وكيف ينسى الغريق روعته إذا نجت روحه من العرق

فالحب والعشق بحر ليس له قرار يغرق فيه الحب ، وإذا نجا فلن ينسى ما كان فيه من الفزع ، الحب مذلة بعد كبر ، فقد أخضع الرافعى بعد أن كان لا يخضع ([3]) .

ويمكن القول أنه فى شعر الرافعى صورة كلية للعشق والغرام والحب والهوى تبدأ من تفسيره فى قوله ([4]) .

لكن عين المرء مفتاح الهوى فإذا رنا فتحت له الأبواب

وتنتهى بفلسفته كقوله : إن الحب نظر جارح وقلب جريح ، وهو سكرة الموت فهيئ الضريح للعاشقين ، والغرام موجع ومن العجب أن ترى جسما على الغرام صحيحا ([5]) ، وقد كان بارعا حين جمع فى حديثه عن الحب والغرام بين المتناقضات كالموت والحب والجنة والنار ، كاشفا عن

([1]) الرافعى : ديوان الرافعى ٦٨/١.

([2]) الرافعى : ديوان الرافعى ٨٨/١

([3]) الرافعى : ديوان الرافعى ٨٩/١.

([4]) الرافعى : ديوان الرافعى ١٣٧/١.

([5])الرافعى : ديوان الرافعى ٨١/١.

قدرته فى السيطرة على اللغة وجعلها أداة طبعة فى سياقها ، والتوسع فى فنون البلاغة كالتورته والتمثل الفنى ، كقوله ([1]):

يا أبا الهول يا أخا الهرم الأكبر حسبى فقد كفاك عيوبا

وهو يخاطب شيخا مسنا أراد أن يخطب فتاة صغيرة مصورا فارق السن بينهما وانظر كيف يمثل لحال اللغة والأدب من حيث الصراع بين القديم والجديد ، بتصوير اللغة العربية أما فى قوله ([2]) :

أم يكيد لها من نسلها العقب ولا نقيصة إلا ما جنى النسب

وفى تمثيل بديع يتحدث عن الشرق والشرقيين فى قوله ([3]):

زرعنا ولم نحصد وكان جدودنا متى يبذروا فى أرضنا الحب يحصدوا

وما قتل المحل البلاد وإنما أصاب الصدى محراثنا فهو مبرد

فهو يريد أن يقول أن الشرقيين أهملوا الأخذ بالأسباب التى ارتقى بها أجدادهم واختلفوا وتخلفوا عن طريق هذا التمثيل البديع وهو أن الحراث إذا ترك علاف الصدأ ، فإذا طال عليه الأمد كان فى خشونة ملمسه كالمبرد الذى لا يصلح للحرث وكيف يحصد من يبذر الحب ولا يحرث له ، وقال ([4]) :

([1]) الرافعى : ديوان الرافعى ١٣١/١.

([2]) الرافعى : ديوان الرافعى ١٤/١.

([3]) الرافعى : ديوان الرافعى ٢٩/١ .

([4]) الرافعى : ديوان الرافعى ٢٩/١ .

والناس كالركب إذا سروا ناموا ولكن المطى تساق

ممثلا لحال الناس فى الدنيا ومشبها الأعمار بالمطى المسوقة إلى الفناء لا تغفل ، وإن غفل الناس فهم كالركب الذين يسيرون ليلا ينامون ومطيتهم تساق ، وقال ([1]) :

وأريتك الألحاظ مغمدة كالسيف مسلولا من الغمد

وهو من تشبيهاته الخاصة وصوره الجديدة الغربية ، إذ شبه لواحظ المرء بالسيوف المسلولة .

حقا ، كان الرافعى شاعرا مغلقا يهتدى بالقدماء ، ولكن عن موهبة وقدرة مكنته من استخدام اللغة استخداما فنيا يقيم العلاقات بين ألفاظها ويعلو بها فوق التعبير المباشر ، لذلك كثرت فى شعره ألوان البيان على اختلافها ، كاشفه عن خيال خصيب قوى ، استطاع به أن يحكم صياغة الأفكار والمعانى ، التى نسميها – تجاوزا – حديثة ، مما يدفع إلى النظر إليه كشاعر له وسائله الخاصة فى التعبير ، بخلاف الفكرة التى شاعت عنه كشاعر تقليدى ، والتى تقيد شعره تقيدا كاملا بالقدماء ولعل ذلك يتضح بشكل أكثر جلاء إذا نظرنا فيما كتبه فى النقد.

"الرافعى الناقد"

الرافعى واحد من كبار نقاد العربية النابهين ، ترك أثارا نقدية كثيرة تدل على قيمته ومكانته فى عالم النقد ، تتمثل فى مجموعة من الكتب النقدية والعديد من المقالات التى نشرها فى المجلات المختلفة ، وهى مقالات كان قد تمنى أن يتفرغ لكتابتها ليهدم أدب عصره من نواحيه الضعيفة ويبنى عليه أدبا جديدا ، يكون قادرا على الوقوف أمام تحديات العصر والنهوض أمام

([1]) الرافعى : ديوان الرافعى ٨٧/١.

الآداب الأجنبية (لأن مثل هذا العمل يحدث فى اللغة والأدب نهضة تتبعث بالحياة) (١) ، وتنبثق نزعة النقد عنده من وعيه بفلسفة الإسلام (٢) ومن ثم فرق بين الفلسفة المادية والتربية الأخلاقية ، وكان أدبيا وناقدا له فلسفة اجتماعية أخلاقية فى جوهرها ، تأثر فيها بتيار الإصلاح الذى بدأ عند الطهطاوى ونماه الأمام محمد عبده ، أى أن فلسفته نمت فى رحاب الدين ، لذلك كانت النزعة الدينية هى هدفه فى النقد ، كما كانت السمة الإسلامية هى السمة البارزة فى نقده وتفكيره ، تتنوع الطريق التى يعرضها بها أو يختلق لها فكرة دينية.

وتصور الرافعى أن له نوعا جديدا من النقد المعاصر . نقد هزل مشوب بالجد أو نقد جد مشوب بالهزل ، وقال أن مصيبة عصره فى الأدب أنه مفلس من ناقد متفرغ للنقد مستجمع لأسبابه بصيرا بمذاهبه متحقق بكل وسائله (٣) ، ومن ثم آمن الرافعى بأن الشاعر لا يكون لسان زمنه حتى يوجد معه الناقد الذى هو عقل زمنه . كما آمن بأن النقد معرفة وموهبة أدبية وذوق وفن ، بل أنه تأبى بالنقد عن الحكم الذوقى الذى لا أفاق وراءه من الثقافة العميقة أو دقة النظر أو الغوص عن أصول الأوضاع اللغوية والأدبية(٤) ، ومن ثم فقد كسف الرافعى عن أغوار بعيدة فى النقد الأدبى ، وارتفع به عن الذوق والإحساس وجعله على أصول واضحة من الثقافة ، وذلك هو الوجه الذى تضافر نقاد هذه الفترة على طبعه بطابعه .

---

(١) أبو رية : رسائل الرافعى ٢١٩ .

(٢) الرافعى : وحى القلم ٨/٢.

(٣) أبو راية رسائل الرافعى /١٨٦ .

(٤)د. مرزوق : تطور النقد والفكر الأدبى /٣٩١.

كان الرافعى صاحب مذهب أدبي جامع صدر عنه فى نقده وخصومته ، ومن الظلم لأن تشبع عنه تهمة الاستغلاق فينصرف عنه الباحثون بالنظرة العجلى مركونا إلى هذه الشائعة ([1]) ، فهو علم بارز وإمام مدرسة نقدية متميزة ، هى مدرسة الأصالة ، والمحافظة على القديم ، وله آراؤه الكثير المتصلة بماهية الأدب والشعر ولغته وخياله وجماله الفنى وبيانه ، أو دورة العبارة الأدبية والقديم والجديد وتصنيف الشعراء ، ومن آرائه النقدية ما هو نظرى وما هو تطبيقى ومنها ما هو صائب وما لم يحالفه فيها التوفيق ، وتميزت آراؤه النقدية بالحرية والجرأة التى أخرجته فى أحيان كثيرة عن الحدود الموضوعية ، فقد كان عملاقا فى نقده لطه حسين لولا أنه أنزلق إلى السب والشتائم ، وكانت طريقة الرافعى فى النقد تقوم على استقصاء الحقائق واستجلاء الغامض والمقارنة والموازنة .

تكلم الرافعى عن بعض الأسرار المتصلة بطبيعة فن الأديب وسر النبوغ فى الأدب ، فقال (ينبغى أن يكون الأدب متنوعا وذا أفانين ([2]) وأساس الأدب والفن هو (ثورة الخالد فى الإنسان على الفانى فيه ، وتصوير هذه النزعة فى أوهامها وحقائقها يمثل اختلاجاتها فى الشعور ، والتأثير هو معنى الأدب وأسلوبه) ([3]) ، والغرض الأول من الأدب (أن يخلق للنفس دنيا المعانى الملائمة لنزعتها إلى المجهول وإلى محاذاة الحقيقة ، فلا يكون الأدب أدبا إلا إذا لا وضع المعنى فى الحياة التى ليس لها معنى ، أو كان متصلا بسر هذه الحياة فيكشف عنه أو يؤمى إليه من قريب ، واللذة فى الأدب آتيه من جمال أسلوبه وبلاغة معانيه ، وتناوله للكون والحياة

([1]) السابق /٣٩.

([2]) السياسة ٤ يونيو ١٩٢٣م.

([3]) الرافعى : وحى القلم ٢٤٩/٣.

بالأساليب الشعرية ([1]) ، وتصور الرافعى الأدب مرآة للمجتمع وصدى لحياة الناس وأفكارها ومطامحها وألوان عيشها ([2]) فالأدب وظيفته المعرفية والأخلاقية التى تجعل للحياة الإنسانية حكمتها وأسرارها من الحق والجمال والخير ، وقال الرافعى إن مادة الأدب تكمن فى النفس (فالأدب ينقل الإنسان من حياته التى لا تختلف إلى حياة أخرى فيها شعورها ولذتها ، وإن لم يكن لها مكان وزمان ، حياة كملت فيها أشواق النفس ، لأن فيها اللذات والآلام بغير ضرورات ولا تكليف ، والنفس لا تتحقق من حريتها وانطلاقتها الخالدة فتحسن وحدة الشعور ووحدة الكمال الأساسى إلا فى ساعات وفترات تنسل من زمنها وعيشها ونقائضها واضطرابها إلى (منطقة حياد) خارجة وراء الزمان والمكان ، فإذا هبطتها النفس فكأنما انتقلت إلى الجنة واستروحت الخلد ، وهذه المنطقة السحرية لا تكون إلا فى أربعة : حبيب مشوق أعطى قوة السحر ، وصديق محبوب وفى أوتى قوة جذب النفس ، وقطعة أدبية آخذة فهى ساحرة كالحبيب أو جاذبة كالصديق ومنظر فنى رائع فيه من كل شئ) ([3]) ، يضاف إلى هذا أن الرافعى ربط بين قيمة العمل الأدبى والكشف عن مزيد من الطاقة الفردية للأديب ، ورأى العمل الأدبى تعبيرا بيانيا يقوم على الهندسة والتصميم والبناء مع الزخرفة والتنميق ، فالأدب لابد معه من البيان ، لأن البيان صناعة الجمال الذى هو الأصل فى الأدب وجميع الفكر الإنسانى .

وانطلاقا من هذا رأى الرافعى الأديب من يحسن اللغة والنحو والشعر إحسان المشاركة فيها جميعا ، ويعنى هذا أن يكون الأديب واسع الاطلاع

([1]) صدر الدين شرف الدين : المختار من أدب الرافعى / ٦٩ وبعدها .

([2])أبو رية : رسائل الرافعى / ٢٥٦ .

([3]) الرافعى : وحى القلم ٢٤٨/٣ وبعدها

محيطا بكل ما يتصل بالأدب من أخبار وروايات ([1]) ، كما أن الأديب إنسان يدله الجمال على نفسه فيدل غيره عليه ، وأساس عمله أن يزيد على فكرة صورة لها ([2]) ، ومن ثم ركز الرافعى على الصنعة البيانية مع الإلحاح على قدرة العمل الأدبى على التعبير عن استجابة الأديب الشخصية ، كما ركز على الكشف عما يملكه الأديب من سمات خاصة ، تريد إلى التكوين النفسى وقدرة التعبير عن هذا التكوين وقد آمن الرافعى بأن الأديب لا يعيش ولا ينتج إلا للآخرين ، فهو صدى لحياة الناس أو كائن اجتماعى لا يستطيع أن ينفرد عن مجتمعه ، ومن ثم فدور الأديب فى مجتمعه بفعل عبقريته أشبه بدور الضمير والإمام الذى يوجه دائما نحو المثل العليا ، فعليه أن ينشئ أدبه من خلال طبعه الخير ذى النزوع الإصلاحى ، ليكون ملتزما اجتماعيا وقادرا على التوحيد بين الطبقات ، يدافع من الفكرة الأخلاقية التى تربط بين الأدب .

والضمير ([3]) ، وبذلك يغدو الأديب أنسانا كونيا – وغيره هو الإنسان فقط – مؤثرا فى المحيطين به ، طالما قامت رسالته على لإقرار المثل العليا، لذلك لم يكن الرافعى يكتب إلا ما يبعث النفس الشرقية فى دينها وفضائلها ويسمو بغايتها فى الحياة .

ويؤكد الرافعى على أن الأديب فكرة وأسلوب ، فهو يتميز بأسلوبه البيانى الذى هو كالطابع على العمل الفنى ، وكالشهادة من الحياة المعنوية لهذا الإنسان الموهوب . وعلم الأديب هو النفس الإنسانية بأسرارها المتجه إلى الطبيعة ، والطبيعة المتجهة إلى النفس ، فموضوع الأديب من الحياة

([1]) الرافعى : تحت راية القرآن ط ٢ /٧٤. ٢٣٢.

([2]) الرافعى : وحى القلم ٣ / ٢٥٠ .

([3]) الرافعى : وحى القلم ٣/٢٥٣.

موضع فكرة حدودها من كل نواحيها الأسرار وعليه أن يبدع المعانى للأشكال الجامدة فيوجد فيها الحياة ، ويبدع الأشكال للمعانى المجردة فيوجدها هى فى الحياة ، فكأنه خلق لتلقى الحقيقة ويعطى للناس ويزيدهم فيها الشعور بجمالها الفنى ، فالحقيقة تخرج فى عمل الأديب مضافا إليها الفن ، ويجئ التعبير مزيدا فيه الجمال ، تتمثل الطبيعة خارجة فى نفس حيه ومن ثم ليس العمل الأدبى نقلا مطابقا للعصر والبيئة ، إنما يمثل الشعر ما ظهر أو خص للبيئة والعصر بصورة جديدة ، حين يختار الأديب صورة من صور الحياة فيمثلها ويعبر عن وقعها المصور على نفسه ، ومن ثم تصور الرافعى الأديب مكلفا بتصحيح النفس الإنسانية والسمو بها إلى دائما ، لقدرته على التمييز والنظر والإلهام فالأديب لا يبحث فى الشىء بل البديع منه ، ولا ينظر إلى وجوده بل إلى سره ولا يعنى بتركيبه بل الجمال فيه ، ولابد للأديب من مثل أعلى يسعى لتحقيقه ، وإلا فهو أديب حالة من الحالات وليس أديب جيل أو عصر ([1]) .

وللرافعى تصور ومفهوم للشعر ، فقد ذكر أن (أول الشعر اجتماع أسبابه فى طبع صقلته الحكمة (التجريد) وجلا صفحته البيان كما ذكر أن الشعر موجود فى كل نفس ، فهو لسان القلب إذا خاطب القلب ، وسفير النفس إذا ناجت النفس ؛ ولا خير فى لسان غير مبين أو سفير غير حكيم) ، وقال أن (الشعر كلام تنصرف إليه كل جارحة وتضم إليه كل جانحة ، وهون بقية من منطق أخرجتها الحواس موزونة على ضربات القلب ، فى ألحان بغير إيقاع لا تراها إلا ساعة النظم) ، لذلك كان أحسن الشعر ما تتغنى به قبل عمله . وهى طريقة تفنن فيها الشعراء حتى كان الحطيئة يعوى فى إثر القوافى عواء الفصيل فى إثر أ مه ، وقال أن (الشعر موجود فى كل

([1]) الرافعى : وحى القلم ٣ ٢٤٩.

نفس من ذكر أو أنثى ، ولقد نبغ فيه من نساء هذه الأمة شموس سطعن فى سماء البيان وطلعن فى أفق الجمال ، كولادة والخنساء ... وليس الشعر كلاما موزونا مقفى وإلا لعددناه ضربا من قواعد الإعراب لا يعرفها الا من تعلمها ، وإنما الشعر يتنزل فى النفس منزلة الكلام وما يعرض له يعد ذلك من الوزن والتقفية ، فكما يعرض للكلام من استقامة التركيب والأعراب بالكلام) ([1]) .

وقال الرافعى إن الشعر (معنى لما تشعر به النفس ، فهو بين خواطر القلب إذا أفاض عليه الحس من نوره انعكس على الخيال ، فانطبعت فيه معانى الأشياء كما تنطبع الصورة فى المرآة .. والشعر كالحلم يحلق فى المخيلة مما يصل إلى الأعين ويتأدى بالآذان ما لا يكون قد وصل ولا تأدى ، ومسرح الشعر بين السماء والأرض ، .. والخيال الأرضى سحر ومن سحره أن يضع أذنه على العين فتسمع وعينه على الأذان فترى ،.. وللشعر أسباب يجب أن تجتمع فى الشاعر ليسمى شاعراً ، مثل رقة فى الحس ، وطبع فى النفس ، وصفاء فى الذهن وانتباه فى الخاطر ، وبعد فى النظر ، وشدة فى المعارضة ، وقوة فى البديهة ، وثراة فى الرواية . وحنكة فى التجارب ، وحنكة فى التجارب ، وحكمة تحيط بكل ذلك- ومن ثم كانت ألسنة الشعراء تنطق بالحكمة-ن ومن يجتمع له ذلك فقد اجتمعت له أداة الشعر ليكون شاعراً ([2]).

وذكر الرافعى أن الشعر أطوار (وقد تأتى على الشاعر لحظة يرقص فيه مع الدنيا ويسمع صوته الفلك ، وحيناً تخطر فيه نسمات الصبا ما بينت أفنان الوحدة إلى أزهار الأزهار الأمل ، وحينما تجده وقد ألبسه المشيب ثوب

([1]) الرافعى : وحى القلم ٢٤٩/٣ .

([2]) الرافعى:مقدمة ديوان الرافعى ٤٠٣/٢.

الاعتبار وحمله بمسحه من الوقار ، ولن يكون الشعر شعراً إذا كان فى نثره أكمل منه فى منطوقه ولن يكون الشعر شعراً حتى تجد الكلمة (القصيدة) من مطلعها لمقطعها مفرغه فى قالب واحد من الإجادة ، وتلك هى مقلدات الشعر) ، ويفرق الرافعي بين الشعر والنثر بعبارات نقدية رائعة يختمها بقوله (لو كان النثر ملكاً لكان الشعر تاجه ، ولو استضاء لما كان غيره سواجه). كما يفرق بين الناظم والشاعر بقوله (إن الناظم جافي الطبع كدر الحس غير ذكي الفؤاد ولم تجتمع له آلة الشعر ، ومسلك الشاعر أصعب ومركبه أوعر وأسلوبه أدق وكلامه أوقع فى النفس ، وعلى قدر إجادته يكون تأثيره ، فالمجيد من الشعراء أفضل من غيره فى صياغة الكلام ، وإنك إنما تزين النثر بالشعر ولا تزين الشعر بالنثر) ، ويستعين الرافعى بما ورد فى الأم للأمام الشافعى من أن (الشعر كلام كالكلام، فحسنه كحسنه وقبيحه كقبيحه ، وفضله على سائر الكلام أنه سائر فى الناس يبقى على الزمان فينظروا ومن الشعر لحكمة ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً) ، ويقول الرافعى أن أحسن الشعر أربعة أبيات (بيت يستحسن ، وبيت يسير ، وبيت يندر ، وبيت يجن به جنوناً) ، وماعدا ذلك فكالشجرة التى نقص ثمرها وجنى زهرها لا يرغب فيها إلا محتطب([1]) ، وقال الرافعى (إن معانى الأشياء تنطبع فى الشعر كما فى المرآة)([2]).

واستناداً إلى ما سبق فإن الشعر الحقيقى عند الرافعى (هو الذى تتوافر فيه قوة الشعر و دليلها الإبداع والمضى فى كل معنى والانتباه إلى أدق المناسبات والذى يسبك لفظه على معناه) ، فالشاعر القوى (لابد أن يتسق قوله فى الجملة ، على حذو الألفاظ ومقابلة المعانى ، وإذا نزل بعض

([1]) الرافعى : مقدمة ديوان الرافعى ١ /١٠، ١٢ ٧/٢ .

([2]) الرافعى : مقدمة ديوان الرافعى ٦/١ ، ٧/٢

كلامه لعارض ما لم ينزل إلا طبقة واحدة أو مادونها)([1]) ، (مؤديه فى غير حليته ويزيد فى تأليفه وصورة تركيبه) . فالشاعر لا يكون شاعراً (إلا إذا كان استمراراً للتقاليد والتراث ، ثم تأتى الموهبة الفردية فتحا جديداً غير مكرر يقاس بمقدار ما فيه من عبقرية الأجداد وفذاذاتهم) ، والشاعر العظيم (من تضع دنياه على اسمه شهادتها له ، كأن تقول شكسبير إنجلترا والمتنبى والعالم العربى وشوقى ومصر) ([2]) ، والشاعر (إنسان متفرد وهو فى نفسه عالم مجتمع ، إذ تشتبك فى نفسه علائق الموجودات وتربط فيه أسباب الحوادث وتتألف من ذلك صورة مرتبة تلقيها إليه حقائق هذا العالم التى يستمد منها الشعر ([3]) وليس الشاعر (ترجمانا سلبيا يصور ما يرجمانا سلبيا يصور ما يرضى عنه المجتمع ويروق له ، إذ أن الأدب سيغدو وسيلة مراوغة تخدع المجتمع عن نفسه ولا تمكنه من إدراك حقيقته) ([4]) ،براعة الشاعر أن يكون كلامه من قلبه)فإن الكلمة إذا خرجت من القلب وقفت فى القلب ، وإذا خرجت من اللسان لم تتجاوز الآذان ، وليس بشاعر من إذا أنشدك لم تحس أن سمعه مخبوء فى فؤادك وأن عينك تنظر فى شفاهه ، فإذا تغزل أضحك وأبكاك إن شاء الله ، وإذا تحمس فزعت لمساقط رأسك ، إذا وصف لك شيئا هممت بلمسه حتى إذا جئته شيئا ، إذا عتب عليك جعل الذنب ألزم من ظلك ، وإذا مدح حسبت الدنيا تجاوبه ، إذا رثى خفت على شعره أن يجرى دموعا ، إذا وعظ استوقف الناس كلمته (قصيدته) وزادتهم خشوعا ، وإذا فخر اشتم من لحيته رائحة الملك فحسبت إنما خفت به الأفلاك والكواكب) ، وقال الرافعى (وأبرع الشعراء من كان خاطره هدفا لكل

([1]) الرافعى وحى القلم ٣ / ٣٦٧ .

([2]) الرافعى وحر القلم ٣ /٣٢ .

([3]) أبو رية : رسائل الرافعى / ٦٤ .

([4]) الرافعى : مقدمة ديوان الرافعى ٨/١ ، ٧/٢٢.

نادرة ، عرضت للشاعر أحوال مما لا يعنى غيره ، فإذا علق بها فكرة تمخضت عن بائع من الشعر فجاءت كالمعجزات ، وهى ليست من الإعجاز فى شئ ، ولا فضل للشاعر إلا أنه تنبه لها([1]).

وبناء على هذا الفهم للشعر والشاعر كانت أراء الرافعى النقدية فى الشعر والشعراء قديما وحديثا والسرقة الشعرية وتوارد الخواطر ، وغيرها ، ففى كتاب (حديث القمر) حديث عن الشعر والشعراء تبدو فيه نغمة النقد الأدبى ، اتهم فيه الرافعى شعراء الشرق بنقص الموهبة وضعف الخيال ، وشبههم بجماعة الزنوج الذين يحسنون الرقص على نغمات الطبول ، وينتهي إلى أن الشاعر الصحيح هو الذى يتلقى المعانى السامية لينقلها إلى الآخرين مهذبة مصفاه (كأن الطبيعة لا تجد طريقا إلى النفوس الضعيفة إلا بعد أن تصفى فى نفوس الشعراء فتخرج منها كما تبعث الغزلية من عين الحسناء الفاتنة ، لكل معنى طابعه الخاص فى النفس ، مع أنها جميعها من مصدر واحد وكتب الرافعى مقالة نقدية قسم فيها شعراء عصره إلى ثلاث طبقات ، وضع على رأس الأولى : الكاظمى ، والبارودى ، وحافظ والرافعى ، بينما على رأس الثانية إسماعيل صبرى وشوقى ([2]) ، وقال إنى أنزلت كل شاعر فى المنزلة التى يستحقها وكان لهذه المقالة أهمية كبيرة لمن يدرس الرافعى دراسة أوسع قائمة على قواعد من العلم والتحليل النفسى ([3]) ، وقد أحدثت هذه المقالة رجعة أدبية وتناولتها الصحف والأقلام وأثنى عليها الأساتذة والعلماء ([4]).

([1]) الرافعى : حديث القمر / ٧٢.

([2])أنظر مجلة الثريا يناير ١٩٠٥ م.

([3])العريان : حياة الرافعى / ٥٨ .

([4])الرافعى : وحى القلم ٣٠٣/٣.

وكتب الرافعى مقالا عن شعر إسماعيل صبرى استعرض فيه منهجه وموهبته الشعرية ، وما كاد يستقصى المؤثرات التاريخية للشعر العربى عامة حتى تحدث عن البارودى أيضا ، فإذا المقال يشمل شاعرين بدلا من واحد وقال إنهما شاعران اقتنصا الخيال الشعرى من طرفى الأرض ، إذ أن الأدب الفارسى والجزالة العربية هى سر نبوغ البارودى ، بينما سر نبوغ صبرى الأدب الأفرنجى والرقة العربية ، ومن ثم فكلاهما يذهب مذهبا يرجع إلى طبع ويروض شعره على وجه ، فالبارودى يستجزل ويجمع إلى سبكه الجيد قوة الضخامة وشدة الخيال ، ثم يعترض الخيال من حيث مهبطه على النفس من ممر الوحى ، صبرى يسترق ويضيف إلى صفاء لفظه جمال التميز وحلاوة الرقة ، ويعارض الفكر من حيث يتصل بالقلب ، والبارودى لا يرى ميزان اللسان يقيم عليه حروفه وكلماته ، وصبرى لا يرى الا ميزان الذوق الذى هو من وراء اللسان ، وقد يسرت لكليهما أسباب ما يتصرف فيه ، فجاء البارودى حافظا كأنه مجموعة من دواوين العرب والمولدين ، وجاء صبرى مفكرا كأنه مجموعة أذواق وأفكار . هما يشتركان معا فى التلوم على صنعة الشعر والتأنى فى عمله وتقليبه على وجوه من التصفح ، وتمحيصه بالنقد والابتلاء لفظا لفظا وجملة جملة ثم مطاولة معانيه ومصابرتهما كأنما ينتزعان محاسنها من أيدى الملائكة) (١) ، والخصال التى أثبتها الرافعى لصبرى والبارودى هى التى أثبتها لهما غيره فيما بعد ، من حيث الرقة فى شعر صبرى والقوة والفخامة فى شعر البارودى (٢) .

وتحدث الرافعى عن السرقة الشعرية وتوارد الخواصر ، فقال (إن توارد الخواطر له أسبابه ، منها ما يكون وحى العين وما يكون حادثة تتفق

---

(١)أحمد حسن الزيات : تاريخ الأدب العربى ، ١٩١٤ / ٤٩٧.

(٢) انظر مقدمة ديوان إسماعيل صبرى .

أو حالة تنزل بالمرء ومنها الأسلوب فإن من الشعراء من يبنى القافية (القصيدة) بالبيت ومنهم من يبنى البيت بالقافية ، ومنها دلالة الكلام بعضه على بعض ، إذا وافاه القائل قسطا من الصنعة ، ومنها اختلاس المثل من جملة بعينها ، ومنها اشتراك المعانى ، أما السرقة فمنها الاصطراف والاجتلاب والاستلماق والانتحال والإغارة والقصيد والمرادفة والاسترخاء والاختلاس والمواربة والعكس والمواردة) ، واستطرد الرافعى من ذلك إلى تصوير حال الشعر فى زمنه ، فقال إن كل أنواع السرقة موجودة فى شعر اليوم ، كاشفا بذلك عن رأيه فى كثير من الشعر والشعراء المحدثين (إن مثل الشعر اليوم والشاعر مثل السفينة يطوف بها فى المحيط من لا يحسن السباحة فى لجة ، فالشعراء يتمرنون فى تراب الأولين ، فإذا علقت يد أحدهم بحلية دسها فى شعره جعلها آية فخره ، ويفتقر - الشعر والشعراء - إلى أسباب الصنعة والجهل بمقاصد الكلام ، والشعراء ضعاف فى اللغة إلى حد النزع ومن ضعفهم لجأوا إلى الترجمة والاستعجام فخرجوا بالشعر عن معنله وآية ذلك أنك لا تعرف فى منظومهم روح التأثير التى هى حياة الشعر ، بل تجد عليه من فساد التكلف ومغالبة الطبع وأثر الاستكراه ، وفيه من المعانى المدخولة ، ولا نشك معه أنه من مضاغة قائلة الأول) وقال الرافعى (إن الشعراء كالمصابيح ليس لأحدهما أن يتألق بنور غيره ما دام فى كل مصباح زينة ، ومرجع التفاوت بين الشعراء إلى المنشأ الذى يطبع الأنفس شيما ، ويكون التفاضل بين الشعراء ابتكار الأشياء على طريقة الشعر لا على طريقة النظم) (١) ، وقال الرافعى : (ليس بشاعر من لا ينقل لك الحياة نقلا فنيا شعريا ، فيريك الشئ فى الظاهر وباطنه معا ، وليس بشعر ما إذا قرأته واسترسلت فيه ، لم يكن عندك وجها من وجوه الفهم والتصوير للحياة

---

(١)الرافعى : مقدمة ديوان الرافعى ٤/٢ . ٥ . ٨ . ٩ . ١٠ .

والطبيعة فى نفس ممتازة مدركة مصورة ، نشرط فى الشعر نفس الشاعر الشاعرة على طريقتها فى الفهم والتصوير ، ولهذه النفس أن تقول كلمتها الجديدة) ([1]) .

ولم يسلم من نقدات الرافعى كبار الكتاب والشعراء ، ونقده القوى تناول به شعر العقاد ، وسيشير إلى ذلك بعد قليل ، كما عاب على أحمد شوقى ابتداءه بالنكرة فى قوله ([2]).

ليلى ، مناد دعا ليلى فخف له نشوان فى جنبات الصدر عربيد

ومعروف أن لغة الشعر لها منزلة خاصة ، ومن ثم يمكن الرد على اعتراض الرافعى بما ورد فى شرح الكافية فى باب المبتدأ والخبر من قول أن الدهان (إذا حصلت الفائدة فأخبر عن أى نكرة إن شئت ، لأن الغرض من الكلام إفادة المخاطب) ([3]) .

وكتب الرافعى مقالا عن الشعر العربى فى خمسين سنة ، فقال (كان هذا الشعر فاسد السبك متخلف المنزلة قليل الطلاوة ، بين مديح قد أعيد كل معنى من معانيه فى تاريخ هذه اللغة ، وبين هجاء هو بعض المواد التى تشتعل بها نار اللوم التى تطلع على الأفئدة ، وبين غزل مسروق بين القلوب التى كانت تحب وتعشق ، بين وصف لا عيب لموصوفة سواه ، وشكوى من الدهر يشكو الدهر منها ، وحزن وندب وبأس ورثاء كقراءة القراء فى جنازات الموتى ، لا فيها عظمة السكوت ولا فائدة النطق ، وتغمر كل ذلك أنواع من الصناعة بينه التعسف ضعيفة التقليد ، لا يرى المتأخر فيها لا مع التقدم إلا قريبا مما يكون اللص فى أخذ المال من عمل صاحب المال فى

([1])الرافعى : وحى القلم ٤٢٣/٣ .

([2]) مجلة الرسالة العدد ٢٤٦ .

([3])رضى الدين محمد : شرح الكافية ، الشركة العثمانية ١٣١٠هـ/ ٦١.

جمعه) ثم يقول الرافعى (والعجيب أنك ؛ إذا اعترضت الشعر من القرن العاشر للهجرة إلى القرن الثالث عشر رأيته نازلا من عصر إلى عصر بتدريج من الضعيف إلى الأضعف) (١) ، هكذا يصف الرافعى ضعف الشعر العربى ، وحين تحدث عن القاضى الفاضل وعصابته ومنها ابن سناء الملك ، شبهها بعصابة البديع الأولى ، مسلم ابن الوليد وأبى تمام وابن المعتز وغيرهما ، ثم قال (وكلتا الفئتين استبدت بالشعر وحرفته زمنا وأحدثت فيه انقلابا تاريخيا مميزا) (٢) .

وتحدث الرافعى عن الشعراء القدامى فقال (إن بعضهم أجاد وبعضهم أكب كما يكبو الجواد ، ولكن من سلك فى الشعر بصيرة المعرى ، او كانت له أداة ابن الرومى ، أو فيه غزل ابن ربيعه وصناعة ابن الأحنف وطبع ابن برد ، وله اقتدار مسلم وأجنحة ديك الجن ورقة ابن الجهم وفخر أبى فراس وحنين ابن زيدون وأداء الشريف الرضى وخطرات ابن هانئ ، وفى نفسه فكاهة أبى دلامة ، ولعينيه بصر ابن خفاجة بمحاسن الطبيعة ، بين جنبيه قلبي أبى الطيب ، فقد استحق أن يمون شاعر دهره وصناعة عصره) ، كما تحدثون الشعر ويثقلوه بأنواع المعانى فقال (إن من تكلف الشعر كالأعمى ، ومن المطبوعين من أثقل شعره بأنواع المعانى ، فكان كالخنساء تزينت ثم سمحت فضربت عنها العيون) (٣) ، ولا شك فى أن هذه الآراء النقدية تكشف عن بصيرة الرافعى وقيمة آرائه فى قضايا الأدب والشعر .

---

(١) الرافعى : وحى القلم ٣ / ٣٧٣ .

(٢) السابق / نفسها .

(٣) الرافعى : مقدمة ديوان الرافعى ٩/١ ، ٢/ ٧ .

ولقد امتلك الرافعى ناصية الأدب واللغة وزمام البيان ، واعترف طه حسين على خصومته له بأنه يظهر على أصول اللغة ودقائقها (١) ، ومن ثم كانت له آراؤه النقدية الجيدة فى لغة الشعر والبيان ، فقد رأى الرافعى أن اللغة العربية أوسع لغات العالم فى تصوير دقائق النفس وخلجات القلب تصويرا فلسفيا ملهما ، ولكن ينقص من تيقنها دقيقة أسرارها (٢) ، كما رآها لا تأبى فى أى عصر على أن يضاف إليها شيئ من المستحدثات الزمنية . ومن ثم فقد وضع الرافعى ألفاظ جديدة مثل كلمة مجمعه ترجمة لكلمة انسيكلوبيدية ، وكلمة دخنيه بدلا من السيجارة ، كلمة تصندق قياسا على تحتقب ، وشقق الالفاظ وولد المعانى مع ملازمته لأصول اللغة ومحافظته على قواعدها ، كأن يستخرج كلمة (إناث الطيب) قياسا على قولهم (ذكور الطيب) لما يصلح للرجال دون النساء من أنواع الطيب والمسك والفالية ، ولم يخرج الرافعى عن قاعدة أو يشذ عن أصل ، وراعى سباق العبارة وما يلائمها من اللفظ ، واتخذ طرقا مختلفة لإحياء اللغة ، ولم يسرف فى الألفاظ المبتذلة أو ألفاظ السوقة وأشباههم ، وفسر بعض الألفاظ تفسيرا عصريا على أسس قرآنية . مثل كلمة الاستقلال والحرية ، فقد فسرها بالمبدأ القرآنى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وكأنه يريد أن يقول أن الزمان مهما تطور فإن القرآن معه دائما لأنه صالح لكل زمان ومكان (٣). وآمن الرافعى بأن اللغة مرآة تعكس أحوال أبنائها ، ففى قوتها صورة لقوة الطباع وفى عظمة أدائها صورة لفظية للأخلاق ، وفى رقة البيان صورة لرقة النفس . وبدقة البيان المتناهية صورة لدقة النظر إلى الحياة (٤) ، فاللغة عنده وجود

---

(١) أنظر حديث الأربعاء ٣/ ١٢٢ .

(٢)ضيف الله الأخضر ابن مسعود ك نثر الرافعى / ٢٠٥ .

(٣) الرافعى : تحت راية القرآن م ١٠٩ ، إعجاز القرآن /١١٢ .

(٤) الرافعى : وحى القلم ٣/٢٥٦.

الأمة بأفكارها ومعانيها ووقائعها ، وهى وسيلة التعبير عن الآراء والأفكار والشعور ، وصور الاجتماع لتمدن العرب الثقافى ، وقد أراد الرافعى أن تكون لغة الأدب والشعر لغة نفسية ، لأن الإحساس هو اللغة النفسية الكاملة(١) ، وقال إن الكلمة حين تدخل فى الشعر تصير كلمة من الفن ، فيها ذاتية وحياة ولها تاريخ ، وقال إن اللفظة ألفاظ مفسرة بما تلبسه وتشير إلى الموجود ولا يراد بها إلا بها إلا التعبير للفهم (٢) ، والكلمة صوت النفس تلبس قطعة من المعنى فتختص به على وجه المناسبة ، وصوت النفس أول الأصوات التى لابد منها فى تركيب النسق البليغ ، حتى يستجمع الكلام بها أسباب الاتصال بين الألفاظ ومعانيها ، والبيان يؤلف أصواتا هى صورة نفسية فى الطبيعة وصورة طبيعية فى النفس ، وصوت النفس هو الصوت الموسيقى ، وصوت العقل هو الصوت المعنوى ، وصوت الحس لا يكون إلا من دقة التصوير المعنوى والإبداع فى تلوين الخطاب ومجاذبة النفس (٣) .

ولكلمة البيان فى نقد الرافعى دلالة على طبيعة العمل الأدبى الاجتماعى المتصل بالمجتمع الذى يعيش فيه صاحب البيان ، ودلالة على الجانب الفردى المتصل بالأديب ، ودلالة إنسانية تتجاوز الوجود المتغير للمجتمع والفرد لتصل بين الآداب الإنسانية ، وهذه الدلالات متصلة مترابطة ، ومن ثم تصور الرافعى البيان غاية الأدب ، والعلاقة بين البيان والأدب علاقة السبب بالمسبب ، وقد قال أن البيان (بقية من منطق الإنسان اختبأت فى زواية من النفس ، فما زالت بها الحواس حتى وزنتها على ضربات القلب وأخرجتها بعد ذلك ألحانا بغير إيقاع) (٤) ، ويعرب أدبه عن هذا

---

(١) الرافعى : إعجاز القرآن ط /٢١٧.

(٢) الرافعى : أوراق الورد /٢٥٣

(٣)الرافعى : وحى القلم ٤٢٨/٣.

(٤)الرافعى : ديوان الرافعى ٩٢٨/١.

المنهج فيصور لنا غزارة المادة وحرية التصرف فى اشتقاقها واستعمالاتها كما يصور نزعته المجازية ووفرة ألوانها ، والمجاز أساس البيان يمنعك أن تفهم إلا بالقرينة والعلاقة ، ويكتفى باللمحة الدالة والإثارة الموجزة والكتابة الرائعة والتفنن فى أساليب القول على وجوه شتى ومذاهب كثيرة ([1]) .

والجمال الفنى هو خاصية البيان ، الذى هو فى اللفظ والمعنى والفكر والأسلوب والصياغة والتعبير ويقوم عند الرافعى على تذوق النصوص التراثية ، ومن ثم نجد عنده أحكاما نقدية على غرار ما نجده عند ابن قتيبه وابن طباطبا ، كقول الشاعر (جيد الطريقة حسن السبك يقول عن فكر وفهم) ، وكثيرا ما أشار إلى بلاغة اللفظ الرشيق فى شعر محكم ([2]) ، والجمال عنده صناعة البيان يكمن فى التعبير الذى يتأدى به ، مرددا فى ذلك ما ذكره عبد القاهر فى نظرية النظم ، والجمال فى الوزن الشعرى لأنه يساعد على إيجاد تنغيم أو الحان تهيئ النفس للنشاط حتى يخيل إليك إذا أنشدت أن آخراً سينشد معك ، فالوزن لون من التصوير الشعرى ([3]) ولا يعنى هذا أننا لا نجد عند الرافعى أحكاماً ينحو فيها منحى نقاد العصر الحديث فى التركيز على الاتجاه النفسى ، بل إنه استخدم هذا الاتجاه النفسى فى تناوله لقضية الإعجاز القرآنى فقال بعد إثباته إعجاز النظم القرآنى (وليس إلا أن تقرأه {القرآن} حتى تحس فى حروفه وأصواتها وحركاتها مواقع كلماته وطريقة نظمها ومداورتها للمعانى ، بأنه كلام يخرج من نفسك. وبأن هذه النفس قد ذهبت مع التلاوة أصواتا ، واستخدام ما فيك من قوة

([1])د. مرزوق : تطور النقد والتفكير الأدبى / ٣٦٣.

([2]) الرافعى : وحى القلم ٢٦٣/٣.

([3])الرافعى : ديوان النظرات ٧/١.

الفكر والحس إليها ، وجرى فيها مجرى البيان فصرت كأنك على الحق مطوى فى لسانك) ([1]) .

وتكمن أسرار النظام اللغوى عند الرافعى فى المناسبة بين ألفاظ اللغة وبين الدلالات وقد قسم أسرار هذا النظام إلى : نظام الألفاظ بالمعانى ، بمعنى أن تكون الألفاظ بالمعانى ، بمعنى أن يكون الألفاظ وفق المعانى أو ما أطلق عليه الرافعى (مساوقة الصيغ اللفظية للمعانى الموضوعية لها) ([2]) ، ويتفق هذا النظام مع محاولة الشاعر الربط بين الألفاظ المتشابهة المتقاربة بمجموعة من المعان المتشابهة المتقاربة ، ثم نظام المعانى بالألفاظ ، أى أن الألفاظ هى التى تسوس المعانى وتنزلها منازلها وتعها على أقدارها ، فاللفظ هو الذى يخصص المعنى إذا كان جنسا ، ويؤكده مبالغة فى تلوين صورته النفسية ، حتى تنطق أجزاؤه ويقوم كل جرس منها فى البيان اللغوى مقام الكل الذى هو مادة الشعور الطبيعى ([3]) ، ثم نظام القرينة الذى يقوم على الاتساع والتقنين وإطلاق الكلام غير مقيد اعتمادا على اللمحة الدالة أ, الإشارة التى تقع موقع الوحى ([4]) ، وقد سماه العرب سنن العربية وسماه الثعلبى سر العربية فى القسم الثانى من كتابه فقه العربية ([5]) ، ويعتمد نظام القرينة على المجاز الذى هو وجه من جماليات اللغة يستجيب لعملية الاختبار التى يقوم بها صاحب البيان ، وإذا وجدت قرينة كان الكلام مقبولا نحويا ، ومواقف الرافعى من المجاز يقودنا إلى أن الجمال لا يتعلق باللفظ أو الكلمة

([1])الرافعى : وحى القلم ٢ / ٢١٨.

([2])الرافعى : تاريخ أدب العرب ١ /٢٢٣.

([3])السابق ٢٢٨/١ .

([4])السابق ١/ ٢٢١ .

([5])الثعالى : فقه العربية/١٥٣ .

المفردة ، لأنها لا تكون مجازا ولا تشبه استعارة إلا إذا دخلت فـــى علاقتـــها مع غيرها .

وتبدأ الدورة البيانية أو دوررة العبارة الأدبية أو حركة العمل الأدبـــى عند الرافعى بالانفعال ، الذى هو قوة دافعة تحرك العملية الأدبية بأسرها ، إذ يعبر الشاعر عن حقيقة داخلية هى مجموعة الانفعالات الفردية التى تفـــرض عليه أن يعبر عنها ودورة العبارة الأدبية عنده دورة خلق وتركيب ، كمـــا أن الانفعال عنده وليد قدرة استقبالية لكل ما يصادف الأديب فـــى حياتـــه مـــن مواقف أو علاقات أو أحداث أو تجارب وبهذه القدرة يتمـــيز الأديـــب عـــن غيره، كما أن الانفعال فاعلية متجددة ، ومن ثم يركز الرافعى علـــى فاعليـــة اللغة فى عملية التعبير ، ويقدر الدور الذى يقوم به صاحب البيان ، وصـــولا إلى الشكل اللغوى الدقيق المعبر عن الانفعال تعبيرا بخصوصية وتفـــرد ، إذ أن مفردات اللغة ليست طبعه فى كل حال . وتمر على الأديب مفردة وعليـــه أن يشكلها ، فيعدل بين المفردات بالأخذ والترك والتقديم والتأخير ليصل إلـــى شكل يتناسب مع معانيه ، ومن ثم يصل إلى نهاية حركة العمـــل الأدبـــى أو دور العبارة البيانية ، التى تخرج فيها الألفاظ أكبر وأقوى ، كأنما كسيت مـــن روح الأديب قوة أو كأنه زاد فيها بصناعته زيادة ، وتلك هى الصناعة الفنيـــة الكاملة (التى تدرك النقص فتتمه ، وتتناول السر فتعلنـــه ، وتلمـــس المقيـــد فتطلقه ، وتأخذ المطلق فتحده وتكشف الجمال فتظهره ، وترفع الحياة درجـــة فى المعنى ، وتجعل الكلام كأنه وجد لنفس عقلا يعيش به) ([1]) .

وقد عاصر الرافعى نخبه من ذوى الفكـــر والاتجاهـــات المختلفـــة . سياسية وأدبية وإصلاحية ، فاقتبس منهم ما أمكنه ، فإذا هو أديـــب وكـــاتب

([1])الرافعى : مقدمة الجزء الأول من وحى القلم ، ومقدمة الجزء الأول من ديوان الرافعى.

وناقد وباحث ، ثم نظر نظره أخرى بعد أن تمكن من اللغة والأدب ، فإذا هو أمام تبار جديد فى الأدب تزعمه قوم باسم التجديد ، فقرأ هذا الجديد فلم يستسغه ، وأعلن أنه غير راض عن الركاكة والابتذال فوجهت إليه تهمة المحافظة على القديم فلم ينكرها ، فأصبح زعيم المحافظين فى الأدب والنقد فى العصر الحديث ، والقديم والجديد هما طرفا المنهج البيانى الذى ألزمه من ناحية النظرية والتطبيق ، وكان هدف الرافعى من معركة القديم والجديد نبيلا، إذ أراد أن يبنى أدب العصر على أسس متينة ، ليكون قادرا فيقف أمام الآداب الأخرى وقفة المعانى المتعالى ، منبئا عما كانت عليه لغته قديما ، ورأى أن السبة التى لحقت لغتنا فى بعض عصورها ترجع إلى ضعف الكتابة لا إلى ضعف الكتابة لا إلى ضعف اللغة ، ومن ثم وضع الرافعى آراء المجددين آراء المذهب القديم ، ليخلص إلى أن المذهب القديم أدل وأقدر على إحياء اللغة وبعثها من جديد بعثا قويا جديدا معتمدا فى ذلك على أمرين ، الأول المنطق والحجة ، الثانى : النزعة الذاتية .

ويعنى المذهب القديم عنده أن تظل اللغة لغة العرب فى أصولها وفروعها ، وأن يأتى الحرص عليها من باب الحرص على الدين ، ولذلك نقد المجددين من باب ضعفهم فى اللغة وأساليبها ، كالتكرار بلا فائدة فى أسلوب طه حسن ، كلمة زكى مبارك (عندما يوافينى الموت)، وقال أن الدليل الواحد يأكل أدلة المجددين جميعا . إذ ليس فيهم رجل فصيح يكون لهم كالتعبير عن طبيعة هذا المذهب الجديد ، واعترف الرافعى بأن المجددين علماء وليسوا جهلة ، لكن دعوتهم التجديدية غير جديرة من ناحتين :

أولا : أنها مجتلبة من المستشرقين الذين يرفعون جانب المعنى على جانب اللفظ ، وثابتا : لأن المذهب الجديد ضعيف إلى حد الرثاء ، فمن ثم تجب محاربة آرائهم ، لذلك سمى الرافعى دعوة المجددين إلى العامية وتمصير اللغة بدعة لغوية ، تدعو إلى أن تدخل فى اللغة الألفاظ السوقية

وتمزج تركيبها بالعامية ، ومن ثم تصبح لنا لغة عربية جديدة لا تجرى على أساليب العرب الفصحاء ، ولا تتقيد فيما نكتب بأصول البلاغة العربية ولذلك قال : لن ترتفع اللغة العربية عند هؤلاء الحمقى من المجددين إلا إذا أصبحت لغة فرنسا أو إنجلترا ، مع أن أدباء أوروبا استهجنوا اختراع إنشاء جديد وأسلوب غير مألوف مخالف للذوق ، وتمثلوا بمعان غابرة لم يبق لها أثر لأنهم يروا التجدد فى الفنون والصناعات داعيا إلى التعبير أسلوب الكتابة ، ويعترف الرافعى بتطور الأدب العربى وتجدده لكنه أدرك أنه لم يوضع له اسم كما فعل دعاة التجديد ، الذين أرادوا أن يكون لهم مذهب خاص ، هم دعاته وزعماؤه ، ومن ثم سيصبحون ذوى مكانه أدبية ونهج خاص فى الأسلوب والتفكير (١) .

وكانت مشكلة الصراع بين القديم والجديد هى مشكلة جيل الرافعى بصراعه الداخلى فى أفكاره ونفسيا ته وعصبياته وعقده ونزعاته الجامعة والمفرقة والبناءة والهدامة والصحيحة والزائفة ، ولم تكن قصرا على الأدب، وإنما كثر كلام الناس على القديم والجديد بعد الحرب العالمية الأولى ، وأطلقوا اسم القديم على كل ما يمت بصلة على تراثنا من لغة ودين وأدب وتقاليد ، كما عنوا بالجديد كل طريف طارئ علينا منقولا فى معظم الأحيان عن الأوربيين (٢) ، وقد عاصر الرافعى هذه المشكلة وأحسها إحساس العيان والمعاصرة فكان ما كان من ثورته وشدته وهجومه على العامية ، لأن الأمر لو كان يعنى إمداد الفصحى بما تزخر به لغة العامية ، من مصطلحات الحضارة وألفاظ الحياة لقلنا نعم ، ولكن الغرض أن يكتب الكاتب ما يشاء غير متقيد بقاعدة من نحو أو قياس من تصرف أو نظام من بلاغة ، لذلك

---

(١)الرافعى : تحت راية القرآن /٣ . ٤ . ٩ . ١٠ . ١٥ . ٩٩.

(٢) د . محمد محمد حسنين : الاتجاهات الوطنية فى الشعر الجديد ٢ /١٧٨.

هاجم الرافعى علمية الأسلوب المقصود به بخس القيمة الجمالية فى الأسلوب وخفض المستوى الرفيع للبلاغة فيجرى الكلام على نهج العلماء فى تأدية المعنى المراد باللفظ السهل ، أو على سنة التجار فى ضغط المعنى فى اللفظ المختزل ، ولا عليهم بعد ذلك من الروح الذى يبعث الحياة فى المعانى فتؤثر، ولا من الفن الذى يلقى الألوان والصور فتتميز ولا من الشعر الذى يشبع الهمس فى الجمل فتوحى ([1]) ، ومن ثم ركز الرافعى على البيان سر اللغة الذى هو أساس الإصلاح والتجديد ، والذى لا يتم إلا بالحق والرواية فترسخ الملكة ويستحكم الذوق ، متخذا بذلك من أهل التجديد موقفا نفسيا يتمثل فى الخوف على لغة القرآن ، وهو ما أقره عليه كثيرون بعد ذلك.

واتهم الرافعى بسبب هذه المواقف بالعداوة للجديد ، والحق أنه لم يكن مستغلقا دون كل جديد ، إنما عادى الفسولة والركاكة فى الأدب قديمة وحديث ، وقال (علينا أن نضيف إلى محاسن لغتنا محاسن اللغات الأخرى ، بشرط ألا نفسدها أو نحيف عليها أو نبيعها بيع الوكس) ، فالجديد عنده إذا كان أصيلا فهو المنشود سواء جاء من الشرق أم من الغرب ([2]) ، ويزيد ذلك أنه رحب بالشعر المهجرى واستحسنه على أجنبيته فى الأسلوب ، قال (والذى أراه جديدا فى الشعر العربى مما أبدعته هذه النهضة أشياء - منها - صياغة بعض الشعر على أصل من أصول التفكير فى الإنجليزية أو الفرنسية. فيخرج الشعر عربيا وأسلوبه فى تأدية المعنى أجنبى ، وأكثر ما يأتى هذا النوع من أمريكا ، وقد أعجب بكثير منه لما فيه من الغرابة والحسن) ([3]).

([1])الزيات : وحى الرسالة ١/٢٢٣ .

([2])الرافعى : وحى القلم ٣ /٣٧٣.

([3])الرافعى : وحى القلم ٣ /٣٨٣ .

وقد كانت للرافعى معركة نقدية خاصة مع طه حسين والعقاد ، لظروف تاريخية يعلمها الجميع ، ولقد خصص لنقد طه حسين كتابه (تحت راية القرآن) ، الذى كتبه وهو فى قمة تكونيه العقلى فى الأدب واللغة ، ردا على كتاب طه حسين (فى الشعر الجاهلى) ، ويشتمل كتابه على مجموعة من المقالات النقدية التى دارت فى أسلوب قام على المنحى البيانى والشدة والعنف والتهكم والسخرية والقول المؤلم وينقسم الكتاب إلى فكرتين ، الأولى هى النزاع بين القديم والجديد ، والثانية هى نقض آراء طه حسين فى الشعر الجاهلى ، وتنقسم آراؤه النقدية التى طرحها من خلال الفكرتين الى أراء موضوعية ، وأراء غير موضوعية ومنها أنه تمادى إلى درجة اعتبار الجديد هدما للميراث العربى من دين ولغة ، أو أن المجددين قوم انتحلوا الإسلام ويدينون بغيره تزندقوا فيه ، أو أن طه حسين لا يفهم دقائق الكلام وأغراضه أو لم يكن حكيما فى سياسة المعانى وأساليب الفكر أو سيئ الفهم فى أساليب البيان وقاصر الذهن فى معانى الفكر ومناحى القول ، أو أنه أول من اجترأ على الأدب بالمسخ والتكلف وقال فيه بالرأى الأحمق وأداره على الوهم البعيد ، أو أنه بعيد عن الصناعة الفنية ومستلهم لتقاليد الزنادقة من المستشرقين الذين لا يوثق رأيهم ولا يفهمهم فى الأدب العربى ، ويخاطب طه حسين بقوله : ويسلم عليك المتنبى ويقول :

وكم من عائب قولا صحيحا وآمته من الفهم السقيم (١)

واعتقد أن كتاب الرافعى لو خلص من هذا النوع من النقد غير الموضوعى لما عادله كتاب نقدى آخر فى زمنه .

---

(١)الرافعى : تحت راية القرآن ط ٣ بيروت لبنان ١٩٧٤ / ٧٣ ، ١٠٢ . ١٠٨ . ١٢١ . ١٣٥.

وأما نقده الموضوعى فى الكتاب فكثير كثره مفرطة ، ومنه رأيه فى التجديد ، فقد رأى الشأن فى التجديد أن تتصل المادة القديمة بالجديدة ببعض الزيادة أو الزينة لإحداث بعض المنفعة ، فالشأن فى الجديد أن نجدد بما لا يغنينا وأن نصور الحياة العصرية بمذاهبها فى الشعر والنثر ، ففكرة التجديد عنده تعنى وصل الشعر بالحياة والإلمام بأحداثها ووقائعها (١) ، واعتراض الرافعى فقط أن يكون التجديد هدفا للقديم وإزاحته ، إنما الجديد ترميم لبعض نواحى القديم وتهذيب بعضها وزخرفة بعضها الآخر ، بذلك تحيا الأمة فى لغتها ولن تموت لغة آمة حية (٢) ، ومن نقده الموضوعى إدراكه أن الأدب العربى ضاع بسبب النكبات التاريخية وفساد طريق التأليف فى أكثر الكتب التى انتهت إلينا ، وأن العصبية نصف الجهل وإن كانت أعلم الناس وأذكاهم ، وقديما أفسدت من تاريخ الأدب العربى أكثر مما أفسد الغلط والجهل معا (٣) ، ومن نقده الموضوعى نقده لرأى طه حسين فى وحدة القصيدة والشخصية الشعرية ، إذ قال (فالشخصية عنده – طه حسين – هى الجزالة والفخامة أو الرقة والسهولة ، كأن كل شاعر قديم أو حديث ، بل ليس شاعر يعد شاعرا إلا إذا أعطى المعانى خير ألفاظها ، جزلة فى مقام الجزالة ورقيقة فى مقام الرقة ، ولا تجد من يلزم طريقة واحدة فى اختيار اللفظ إلا إذا لزم فنا واحدا فى المعنى ، كالشاعر الغزلى المتهالك فى نسيبه ، فإن الغزل لا تحسن فيه إلا ألفاظ فى رقة الدموع والتنهدات) ويضرب الرافعى مثالين على ذلك من شعر بشار (٤) ، وللرافعى لفتات صائبة فى نقض انتحال الشعر الجاهلى ، كنقده لرأى طه حسن فى المعمرين الذى لم تقم عليه شهادة قاطعة أو دلالة لا نقدر على ردها (١). وأما نقد العقاد وشعره فقد

(١)د. مرزوق : تطور والتفكير الأدبى / ٣٦٥.

(٢)الرافعى : تحت راية القرآن / ٧٤ ، ٧٥ ، ٢١٠ ، ٢١١ .

(٣)السابق / ١٢٢ ، ١٣٥.

(٤)السابق / ١٣٨ .

قاطعة أو دلالة لا نقدر على ردها ([1]). وأما نقد العقاد وشعره فقد خصص له الرافعى كتابه (على السفود) وأصله مجموعة من المقالات النقدية نشرها فى مجلة العصور بين سنتى ١٩٢٦م ، ١٩٣٠ ، وهى نقد عاطفى يسئ إلى الرافعى من جميع القراء حتى الأصدقاء الذين خصهم بالود ([2]) ، وتتضح عاطفية نقده فى المناورات الأدبية لتحقيق الشهرة ، وفى العناد ليقلل من شأن خصمه وقيمته ، وفى المجاملة فى بعض المواقف الحرجة ، وفى البنيان لينال من صاحبه ([3]) وكانت دوافع الرافعى إلى تأليفه أن يضع أنت جبار الكتابة (العقاد) مقدار ساعتين فى الأرض لأنه لم يتجزأ عليه أحد إلى الآن ([4]) ، أو تنفيذا لاقتراح صاحب مجلة العصور بوضع العقاد على السفود ، أو غضبه لله والقرآن لأن العقاد كان له رأى خاص فى القرآن وإعجازه ([5]) ، والحق أن العقاد لم يعرف عنه رأى منحرف وإنما هو صاحب الآراء الصائبة فى القرآن وإعجازه ، ومن ثم يبدو السبب الحقيقى فى تأليف (على السفود) هو انتقاد العقاد للرافعى فى تأليفه كتاب إعجاز القرآن([6]) ، واعتقد الرافعى أن العقاد حسده على تقريظ سعد زغلول لكتابه يضاف إلى هذا قصة الرافعى والعقاد فى صالون الأدبية مى زيادة ([7]).

([1])السابق /١٨٨.

([2])ضيف الله الأخضر : نثر الرافعى / ١٠٣.

([3])السابق / ١٠٤ .

([4])أبو رية : رسائل الرافعى / ١٦٠.

([5])العريان : حياة الرافعى / ١٨٥.

([6])البلاغ ٣ ديسمبر ١٩٢٦ م .

([7])أنور الجندى : النثر العربى المعاصر فى مائة عام / ٤٥٨ ، والعريان : حياة الرافعى / ١٠٢ .

وأيا ما كانت الأسباب فإن كتاب (على السفود) آية فى النقد اللغـــوى ، يدل على سعة الاطلاع وعمق التفكير ، ويعطينا فكرة أوسع فى اللغة ويعبـــه العبارات النابية والألفاظ البذيئة ، وقد قام نقد الرافعى فيه علـــى فكرتيـــن : الأولى ، إدراك طبيعة العقاد الخاصة من دعوى التفلسف وابتكار النظريات ، والثانية ، الأخطاء اللغوية والفكرية التى وردت فى مؤلفـــات العقـــاد ، كـــأن يعلق بأسلوب ساخر فى مقدمة الكتاب على بيت العقاد :

والشعر من نفس الرحمن مقتبس والشاعر الفذ بين الناس رحمن

بقوله أن ذلك يدل على غرور العقاد وحماقته (١) ، وحين ترجم العقـــاد رأى شوبهنور فى الجمال ، رد عليه الرافعى بأنه رقيع يدعى النبوة والوحـــى ، ثم أبان عن رأيه هو فى فلسفة الجمال ، مع أن الذى أثبته العقاد لشـــوبنهور أثبته كثيرون ، اتفقوا على النقاط الرئيسية التى انتهى إليها العقاد (٢).

وتتبع الرافعى معانى شعر العقاد ونقصاها ليجد لها مثيـــلا فـــى الأدب العربى القديم ، ليقول أن العقاد احتذاه ونهج نهجه أو سلخة واختلسه ، أو مـــا شاكل ذلك من المصطلحات المقررة فى النقد عن الشعر العربـــى ، وتناســـى الرافعى أن معانى شعر العقاد قد تكون نابعة من وجدانـــــه أو تعبـــيرا عـــن شعوره ، وقال إن العقاد من أجهل الناس باللغة وعلومها ، وفى شعره شـــيئان متناقضان ، الأول : أبيات حسنة لا بأس بها ، والثانى : ألوف مـــن الأبيـــات السخيفة المخزية التى لا قيمة لها لا فى معنى الجمال ولا فى الفـــن ولا فـــى البيان ، مما يدل على أن الأبيات الحسنة مسروقة من قريحة غير قريحتـــه ، كما قال إن كلام العقاد لئيم وأسلوبه لئيم وسرقاته لئيمة وبيانه متهدمى ، وهـــو

---

(١)الرافعى : على السفود / ١٠٢ .

(٢)العقاد : مرجعات فى الأدب والفنون / ٧٦ وبعدها ، وأنظر مجلة العصور ديسمبر ١٩٢٩ م/٩.

يمشى فى الشعر على رجلين من الخشب عرب عن شكسبير وقلد برنارد شو وتظاهر باحتقار الأدباء وهو يغلى حقدا وحسدا ، ينشر ويدعى المكيلة ولا يحترم نفسه ولا الناس ولا الفن ، وهو سقيم الفهم فى العربية وهو علة تعلقه بالجديد وزعمه أنه مجرد ، وعلة ة تجنبه فى أن ينشر شيئا من الأدب العربى القديم ، وعلى انحطاط شعره ، العقاد شاعر ذبابى ومراحيضى ، والتجديد عنده فى شعر العجز عن الصناعة البيانية ، التى تحتاج إلى طبع وذوق وقوة وخيال ، وقاعدة فى توليد المعانى هى السرقة الشعرية . مما يدل على ضعف وبلادة وعامية فى الطبع ، وشبه مسخ وتشويه ومداخلة الأقوال والأفكار بعضها فى بعض ، وأكثر شعره ركيك يلتوى فيه المعنى أو يضطرب السبك أو يقصر المعنى عن الأداء ، فيظهر الكلام غامضا لا يفهم أو ناقصا لا يفهم أو معقدا لا يخلص أو لغوا وهذيانا أو قريبا منهما ، والسبب اعتماده على السرقة والترجمة واجتهاده فى إخفاء السرقة بتحويل المعنى أو النقص منه ، بذلك يفقد المعنى جماله الشعرى أو البيانى . فيجئ كالمسروق مضطربا ناقصا ، يضاف إلى هذا أن الشعر العقاد كلام جرائد لا يوقف على معناه إلا بالشرح ، وبنس الشعر إذا كان لا يوقع على معناه إلا بضم الشاعر والقارئ أو ضم الشرح والمتن (١) وبهذا الفهم تتبع الرافعى شعر العقاد ، فحين قال العقاد يصف الحبيب:

صفه فى كل كساء صفه فى كل الجهات

هو فى الروضة إذ يمشى أحب الزهرات

وهو فى الفقر رياض من هوى لا من نبات

تم والله فيا ليست به بعض الهبات

---

(١)الرافعى : على السفود / ١٤ ، ١٨ ، ٢٦ ، ٤٩ ، ٩٠ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١٣ .

تم حتى أتعب العين بفرط الحسنات

قال الرافعى : انظر كيف يجئ بأسخف توليد فى البيت الذى أحسنها وصفه فى كل كساء شحاذ قذر ، حتى كفن ميت ، حتى فى ثوب مصاب بالجذام ، وقال (صفه فى الجهات) حتى فى القبر ، ثم إن البيت الثانى من قول القائل :

تظنه الروضة إما مشى فى أرضها أجمل أزهارها

وجاء ابن المهدى بهذا المعنى طريقا ، إذ جعل الحبيبة تغنى عن الروضة كلها ، حين قالت :

خلتها فى المعصفرات القوانى وردة من شقائق النعمان

أنت تفاحتى وفيك من التفاح رمانتان فى غصن بان

وإذا كنت لى وفيك الذى أهوى فما حاجتى إلى البستان

وقال الرافعى : وأثقل شعر على النفس جعل العقاد حبيبه (فى القصر) رياحا من هوى ، من نبات ، أهذا مما يجعل للحبيبة قيمة فى القفر ولو قيمة عود نبات يابس ، وقال إن تشبيه الحبيبة بالروضة كثير ، ولكن لم يقل أحد روضة هوى فى قفر غير العقاد ، وتساءل الرافعى عن بيت العقاد :

تم والله فيا ليست به بعض الهنات

هل فى الدنيا حبيب يقبل من محبه أن يقول له : يا ليت بك بعض العيوب ؟ وإذا كان العقاد قد فسر الهنات بالعيوب الطفيفة ، فما هى العيوب الطفيفة التى تمناها فى حبيبه وجلقته وجماله ([1]) وواضح الرافعى كان يدرك أن كلام العقاد (تم والله...) قول صحيح لا غبار عليه ، وقد ورد فى كلام

([1])الرافعى : السابق / ٩٦ ، وأنظر مجلة العصور ديسمبر ١٩٢٦ م /٤٤.

الأقدمين ، فقد ورد قبله عن مجنون ليلى ([1]) ،ولكن نقد الرافعى كان من النوع العاطفى ، لذلك أنكر جمال أبيات العقاد .

وقال العقاد :

يا ليت لى ألف قلب تغنيك عن كل قلب

وليت لى ألف عين تراك من كل صوب

فقال الرافعى (إن الحبيب العقاد ألف عاشق – لذلك – ... فالعقاد يتمنى أن يكون له ألف قلب ليقوم وحده مقام الألف ...ثم يريد أن يكون له أيضا ألف عين لينظره من ألف جهة ، فى صرح الحبيب يجد ألف قلب تحبه ، فهل يصح فى العقل أن الجهات ألف ؟ أم يظن العقاد أن تخرج عينه وتجرى وراء الحبيب ... فيكون حيث هو ملقى ومع ذلك يرى حبيبه

فى كل مكان ثم يقول الرافعى إن معنى البيتين لأحد شعراء أواخر القرن الرابع الهجرى ، فهما مسروقان من بيتى أبى على الحاتمى وهما :

([2]) لى حبيب لو قيل لى ما تمنى ما تعديته ولو بالمنون

أشتهى أن أجل فى كل قلب فأراه بلحظ كل العيون

ووصول الرافعى إلى هذين البيتين يكشف عن حقيقتين ، الأولى ، هى صبره ومعاناته والثانية هى سبق العقاد فى الإطلاع والفهم . ومع ذلك يظل لتعبير العقاد ومعناه خصوصية

ووصف العقاد قوس قزح فقال :

ألقى لهن بقوسه قزح وأدبر وانصرف

([1])أنظر ديوان مجنون ليلى /١٢.

([2])ياقوت : معجم الأدباء ١٨/١٥٤.

فلبس من أسلابه شتى المطارف والطرف

فعاب الرافعى قوله بانفصال قوس قزح بدليل قوله (أدبر وانصواف) ، لأن لسان العرب ورد فيه (لا ينفصل قوس قزح) ([1]) ، وما عابة الرافعى ليس بعيب لأن لغة الشعر لها مذهب خاصة ، وقال العقاد :

قلاك من دفاع نار الجحيم ووصلك الجنة دار النعيم

فقال الرافعى : أى بليغ على وجه الأرض يستطيع أن ينطق (قلاك من دفاع نار الجحيم ... إن فم العقاد يصلح أن يستخدم فى (طره) لقلع الحجارة وتكسير الزلط ([2]) ، ليكون الهجر مرتبا على رغبة صاحبه فى إبعاده ، فيصور أن المعنى بأنواعها ، والبيت الثانى تكرار لنصف الأول ، والبرود كله فى قوله : سمعت وجهك يقول كذا ، أو سمعت لسان جمالك يقول كذا ، فإن هذا يقتضى لطفا حقيقيا فيما لا ينطق إلا توهما ومجازا وبهذا ينحط المعنى ، وفوق هذا فإن بيتى العقاد مسروقان من قول العباس بن الأحنف :

أريد لأدعو غيرها فيجربى لسانى إليها باسمها كالمغالب

لكن العقاد المتشاعر قلب المعنى ، ثم إن أبى تمام عن هذا المعنى أحسن تعبير بقوله :

هى الشمس يفنيها تودد وجهها إلى كل من لاقت وإن لم تودد

وتأمل قوله (يفنيها تودد وجهها) فهى كلمة بالعقاد وكل شعره ([3]) ، وقال العقاد

ولو مزجوا بالخمر طينة آدم لعاش ولم يدر القطوب محياة

([1])مجلة الرسالة العدد ٢٥٢.

([2])الرافعى : على السفود / ٤٣ .

([3])الرافعى : على السفود /١٥، ١٦ .

فقال الرافعى : علام تعود الواو فى (مزجوا) ، أصنع آدم جمعية آلهة أم صنع فى معمل كيماوى ملائكى أم أن العقاد يعترض على الإله ([1]) ، وقال العقاد :

ومالت على أذنيه حتى كأنه ليسمع منها شحوما ولا تندما

فقال الرافعى : ما هذا اللام فى (ليسمع) ، لام عقادتة ولا شك ([2]) .

والخلاصة أن لغة العقاد فاسدة ، ومن ثم فمن الطبيعى أن تكون معانى شعره فاسدة كذلك ، لذلك حين تحدث العقاد عن الزهرة فى قوله :

أشعة ينبثقن شتى كأنها عذق ياسمين

فإن الرافعى رأى أن العذق لا يقال لما فيه زهر فعذق النخلة هو سباطتها ، لذلك كان يجب أن يقول العقاد (غصن ياسمين) ([3]) ، وقال العقاد متحدثا عن النجم :

حسن النجوم فى الأفق تترى .....

وفسر العقاد تترى فقال : تتوالى ، ولكن الرافعى رآها اسما ممنوعا من الصرف لا فعلا مضارعا واستشهد بالراغب الأصفهانى ([4]) ، وقال العقاد :

عثمان يا عيد من يحظى بصحبته بلغت ما شئت من الأيام والناس

أولى الأنام بإسعاد وتهنئة من كان كالعيد فى بشر وإيناس

([1])الرافعى : على السفود /٧٦.

([2])الرافعى : على السفود ١٧.

([3])الرافعى : على السفود / ١١٦.

([4])الرافعى : على السفود / ١١٧ .

فقال الرافعى : إن العقاد يدعو على الناس فى يوم العيد ، لأنه يدعو لعثمان أن يبلغه الله من يشاء فيهم ، وقد جعل عثمان عبد من يحظى بصحبته ماسخا بذلك كلام المتنبى ، الذى جعل عيدا للعرب جميعا فى قولة :

هنيئا لك العيد الذى أنت عيده وعيد لمن سمى وضحى عيدا

فذا اليوم فى الأيام مثلك فى الورى كما كنت فيهم أوحد كان أوحدا ([1])

وقال العقاد:

ويثقله حمل الجناحين بعدما أقلاه وهو الكاسر المقتحم

فقال الرافعى : أنه يريد بالكاسر مثل الجرائد التى يتعلم فيها (حيوان كاسر وهذا خطأ ، لأن كلمة الكاسر لا تقال إلا للطائر حين يكسر جناحيه للوقوع ([2]) ، وقال العقاد:

جناحان لو طارا لغضب فدومت شماريخ رضوى واستقل يلملم

فقال الرافعى : إن العقاد قال فى الشرح إن التدويم تحويم الطائر فى الفضاء ، والشماريخ التلال ، والمعنى أن صفة الطيران سلبت من جناحيه فأصبحنا والجبال سواء ، ويريد المتشاعر - العقاد - أن جناحى العقاب الهرم جمدا فلا يطيران ، فلو هما طارا لطارت شماريخ جبل رضوى وقام جبل يلملم يطير ... وهل يشبه الجناح فى الطائر الهرم بالجبل الشامخ أم بالضعف ([3]) ، وقال العقاد :

تهد قوى الثبت المريرة من جوى فتعرفه إلا بشاشا وأعظما

([1])الرافعى : على السفود /٣٤.

([2])الرافعى : على السفود /١٧ .

([3])الرافعى : على السفود /١٧.

فقال الرافعى : إن العقاد فسر (تعريفه) بقوله عرق اللحم : كشطة وأبقى العظام ، فإذا كان هكذا ، فمعنى البيت (كشط اللحم وتبقى العظام إلا العظام) ، أبيات هذا أم هذيان ([1]) ،

وما دامت لغة العقاد فاسدة ومعانية سخيفة فإن صوره الشعرية غير جيدة فنيا ، كقوله :

وتولى فيها عذاب المحبسين بلاغ المنى من الأحباب

ليس غسلينهم سوى الشهد ممنوعا على قرب ورده فى الرضاب

فهذه صورة غير جيدة لأنه استخدم فيها الغسلين بمعنى رضاب الحبيبة، بينما الغسلين هو ما يخرج من جلود أهل النار من القيح والصديد ، وقد قلب العقاد قول البحترى :

وجنة حسن عذبتنا بحسنها وما خلت أنا بالجنان تعذب ([2])

وثمة ملاحظات حول نقد الرافعى ، من أهمها أنه يبدو فى نقده رجلا ذواقة للشعر العربى القديم مطلعا عليه حافظا لكثير من درره البيانية ، وواقفا على مواطن الضعف والازدهار فيه ، وملما بقضاياه وتطوره وأهم شعرائه ، ومدركا فساد الارتباط بين الأدب وتطوره وبين التغيرات السياسية ، لذلك رأى أن الطريقة المثلى هى أن نذهب فى تأليفنا مذهب الضم لا التفريق ، وأن ندرس الأدب عن معانى الحوادث لا العصور ، فنخصص الآداب بالتاريخ لا التاريخ بالآداب ، ومن ثم فإنه لم يقم منهج كتابة (تاريخ آداب العرب) على حسب العصور ، وإنما أقامه على حسب الموضوعات لأن

([1])الرافعى : على السفود /١٧.

([2])الرافعى : على السفود /٤٤.

الوحدة الموضوعية أهم رابط للفكرة التأليفية ([1]) ، ويتمثل إلمامه بقضايا الشعر القديم فى مقاله (الشعر العربى فى مائة عام) ، كما يتمثل إلمامه بأهم سمات الشعراء القدامى فى حديث عن الشعراء القدامى من بشار إلى أبى العلاء ، وكثيرا ما كان يلجأ الرافعى فى نقده لشعر شاعر حديث إلى عرض شعره على شعر الفحول من القدماء ليقارن ويوازن ، ويتضح ذلك بشكل خاص فى نقده لشعر العقاد وفى نقد الرافعى لفتات وآراء صائبة كثيرة ، كفكرته عن التجديد ، وهى فكرة تكشف عن وعيه بالشعر العربى القديم رواية ودراية ، كما تكشف عن كونه رجلا سلفيا يتحمس للقديم ويتصور التجديد على أساس قيامه من القديم ، فالتجديد ترميم لبعض نواحى القديم وتهذيب بعضها الأخر ، ومن آرائه الصائبة فكرته عن الشعر ودواعيه وإقامته ، ومن آرائه الصائبة أيضا فهمه للغة الشعر وأسرار النظام اللغوى ، وقوله بحرية الشعراء فى التعامل مع اللغة بشرط عدم العبث بها ، لأن العبث لا يؤدى إلى معنى شعرى ، وينبغى مع الحرية أن يجيد الشاعر استخدام جماليات اللغة فى التقديم والتأخير والحذف والوصل والتنطير والتعريف ، بشرط أن يؤدى ذلك إلى خدمة السياق ، ومن آرائه الصائبة كذلك ما ذكره عن السرقة الشعرية وتوارد الخواصر ، ولكن يعيبه ما أطلقه فى هذا الصدد من الأحكام العامة ، خصوصا فى تعامله مع شعر العقاد ، كأن يحتم أن العقاد قد سرق من ابن الرومى وابن الفارض .

وتميز نقد الرافعى بالظرف والسخرية والنكتة اللاذعة وحضور البديهة كما تميز بشىء من العنف والقسوة الذى وصل فى بعض الأحيان إلى السب والشتم مع طه حسين والعقاد ، ربما لأنه تعرض لهجوم شرس منهما فى معركة القديم والجديد ، وقد استخدم ألفاظا سوقية فى وصف طه حسين ،

([1])الرافعى : تاريخ آداب العرب ١ /١٤ ، ١٦.

كقوله إنه (فيلسوف النمل ، وسوقى بطبع ، ومسلم لفظا لا معنى ، ويعبث برجال التاريخ العربى من الشعراء ، ولم يلامس أسلوبه صناعة الشعر ... الخ) ، وبالمثل جرد الرافعى العقاد من كل صفات العبقرية التى عرف بها، وأكد على اتهامه بالغرور والتزوير والادعاء والكذب والتلفيق وبذاءة اللسان وموت الضمير والسفه والحمق ولؤم النفس ولولا هذه السوقية لبرزت قيمة آراء الرافعى النقدية فى الشعر العربى والحضارة العربية ولا يعيب الرافعى أن تكون له آراؤه النقدية التى تستحق المناقشة والجدل الكثير ، كقوله (لو كان فى طبع المتنبى الغزل لأبدع واستوفى المعنى ، ولكنه فى الغزل ضعيف جدا يقلد غيره (١) ، قلم يكن المتنبى ضعيفا أو مقلدا فى غزله وإنما كان بارعا فيه إلى درجة أنه استطاع أن يتحدث عن الحرب والطعان بلغة الغزل والعشق والغرام ، ولغته الغزلية مبثوثة فى كل أغراض شعره . وموافقته العقاد فى فكرته عن هجاء ابن الرومى ، كما يعيبه أنه لم يعط انتباها لانفعال العقاد وإحساسه وهو ينقد شعره .

وعلى أية حال ، سيبقى الرافعى حين الدهر علما من أعلام الأدب والنقد ويكفيه فخرا أنه تزعم وحده مذهبا يحافظ على القديم ، كما يكفيه فخرا أن أصبح له مريدوه الذين يعكفون على تكريمه ودراسة آثاره الأدبية والنقدية. ومن الله التوفيق

---

(١)الرافعى : على السفود /٦.